# على المنحدر

**على المنحدر**

**رواية**

ماركوس فيرنر / سويسرا

ترجمة : د. سالمة صالح

الطبعة الأولى،2007

ISBN: 978-977-6299-07-9

نفرو للنشر والتوزيع

21 ش الصناديلى بالجيزة

وكالة سفنكس للفنون والآداب

7 – شارع معروف الدور السابع

وسط البلد – القاهرة

ت/ف : 25792865

www.sphinxagency.com

info@sphinxagency.com

ماركوس فيرنر

# على المنحدر

ترجمة: د. سالمة صالح

Sphinx Agency

نفرو للنشر والتوزيع

**Am Hang**
Marcus Werner
Fischer Verlag, Germany

The publication of this work was promoted by funding from Pro Helvetia - Arts Council of Switzerland.

كل شيء يدور. وكل شيء يدور حوله. إنه لجنون أن أكون قد أوشكت حتى أن اتخيله يتسلل في هذه اللحظة دائرا حول البيت — بخنجر أو بدونه. في حين أنه قد سافر كما يقال، بينما أسمع أنا فقط صراصر الحقل ونباح كلاب ليليا بعيدا.

هنا أقبِل على عيد العنصرة في تيسين، لأتعمق في هدوء في قانون الطلاق، وهنا يعترض طريقي هذا المجهول، هذا اللوس، وينجح في ارباكي، فيتبدد كل ما جمعته. وقد أجهزت ايفا على الباقي، هناك في كاديماريو، اليوم، لقد عدت إلى هنا مبلبل الفكر، واتصلت بجريدة الحقوقيين، أو بالمحرر بشكل شخصي فاليوم هو عيد العنصرة، لأخبره أنني لا أجد نفسي قادرا على تقديم الموضوع في الموعد المح دد، إذ أن التهابا بالجيوب الأنفية مصحوبا بالحمى يشلني، قلت له وأنا أضغط خلال المحادثة القصيرة أنفي بين السبابة والإبهام. أسمع المحرر يقول بتكلف كيف أن حالي سيئة جدا.

نعم. أقرب إلى السوء. رغم أن الجيوب سليمة وأنني غير مصاب بالحمى أيضا. كان بإمكاني أن أسمي هذا الذي يقض مضجعي نوعا من حمى الجبين. السالفان اللذان أضغط عليهما بأصابعي على أية حال، لأخفف الصخب خلفهما ساخنان كما لو أن الأفكار التي تدور محمومة حول الشيء نفسه تخلق حرارة من خلال الإحتكاك.

إنه لأمر حسن أن أنام الآن، انفض عني لوس، عبارات لوس التي تلتصق مثل شعيرات النسيج، أبعدها بالفرشاة عن ذهني.

لقد قال لي هو نفسه: لا تنسَ النسيان، وإلا أصبت بالجنون. لكنه قال أيضا، بالطبع ضمن سياق آخر، النسيان أسوأ أوبئة عصرنا وأكثرها تسللا بشكل غير محسوس.

والآن حسنا، بهذه الصورة أو تلك، لن أتخلص من هذا الرجل بأن آمر نفسي ألا أفكر فيه بعد الآن. بهذا سيحتل مساحة أكبر ويقلص وعيي ويجعله أكثر اضطرابا. أعرف هذه الظاهرة منذ أن تركتني أندريا مثل مظلة منسية، كان ذلك قبل خمس عشرة سنة وكنت يومها في العشرين، خلال ذلك أصبحت أعرف في الواقع كيف يعطل المرء الميكانيكية وكيف عليه أن يتصرف بطريقة منظمة مع خيوط متلبدة. البحث عن البداية. إزالة العقد بعناية عن كرة الخيوط، إزالة الاضطراب. حل الغزل دون عجلة ولفه في نفس الوقت لفا منتظما قويا على البكرة.

الكلام سهل، أليس كذلك يا عزيزي لوس. إنك أخفقت إخفاقا جذريا على أية حال، فيما إذا كنت قد حاولت أصلا. أم أنك تعاملت دائما هكذا بكُرة خيوطك، بغزلك — كيف أعبر عن ذلك — بطريقة عجيبة كما فعلت في شرفة في بيليفو؟

كان الزحام يوم الجمعة قبل عيد العنصرة في غوتهارد معتدلا. وصلت هنا حوالي السادسة، كان أول ما فعلته هو أن أدير صنبور الماء الرئيس كما هي العادة، انعطب الصمام، أوقفت السخان والبراد عن العمل واخذت حماما باردا. تخلصت كالعادة من الزجاجات الفارغة التي تركها لي في عيد الفصح زميلي المحامي وشريكي في ملكية البيت. لم يكن إشعال نار في المدفأة أمرا عاجلا فقد كانت أمسية حزيران دافئة. دافئة لدرجة أني ركبت سيارتي مرة أخرى في الثامنة، مضيت منحدرا من أغرا إلى مونتاغنولا وركنت سيارتي أمام فندق بيليفو أو بيلافيستا. خائب الظن كان علي أن اتبين أنه لم تعد ثمة مائدة خالية على الشرفة، ولأني لم أُرد أن أجلس في القسم الأمامي من المبنى ذي الواجهة الزجاجية وقفت مترددا، أنظر إلى الضيوف يقربون كراسيهم. هنا اكتشفته. كان الوحيد الذي يجلس وحده أمام مائدة لأربعة أشخاص في الزاوية اليسرى للشرفة. استجمعت قواي، ذهبت إليه — كان يدرس قائمة الطعام — وسألته بالايطالية إن كان يأذن لي بالجلوس. نظر إلي برهة ولم يقل شيئا. أعدت سؤالي بالألمانية واتخذت مكاني قبالته بعد أن أومأ لي برأسه وهو غائب الذهن. لفت نظري أنه كان يرفع نظره عن قائمة الطعام من وقت لآخر بينما كنت أنتظر أن يؤتى إلي بالقائمة، أدار رأسه قليلا وترك نظره يستقر على المرتفعات

والسفوح في الجهة الأخرى من السهل. كان رأسه جمجمة كبيرة ذات عظام قوية، خالية من الشعر فيما عدا نصف إكليل كثيف محلوق يمتد من الصدغ إلى الصدغ وكذلك لحية كثة وخطها الشيب لم تحلق منذ ثلاثة أيام. بدا رأسه ثقيلا، والرجل بأكمله ثقيلا وضخما، لكن كتلته لم تعطِ الانطباع كما لو كانت تترجرج خارج حدود جسده، بدا متماسكا. أقدر أنه في الخمسين من العمر. حين أتاني النادل بقائمة الطعام طلب الغريب طعامه بصوت عميق أخنف قليلا. كانت ثمة قارورة من النبيذ الأحمر قد وضعت أمامه من قبل. تناول الآن قدحه وشربه ببطء حتى آخره وقد حول نظره إلى الهضاب ثانية. لم يلاحظ وجودي. قلبت أوراق قائمة الطعام توقفت سبابتي عند الفيليتو دي كونيغليو وذعرت قليلا. لم أكن قد فكرت حتى هذه الثانية في فاليري وفي أننا أكلنا هنا قبل وقت طويل شرائح من لحم الأرنب،

كانت فاليري لا تزال نشيطة أما أنا فقد كنت أقرب إلى أن أكون مختنقا وغير قادر على الكلام، لأنني كنت منشغلا في داخلي بأن أجد عبارات رفيقة، فقد كنت أريد أن أنفصل عنها.

هبطت الشمس، وبينما كان البحر تحتنا قد فقد بعض لونه ومض النبيذ في قارورة الغريب. يا له من لون ذهبي، سمعتني أقول، هل تسمحون لي أن أسألكم ما هذا الذي تشربونه؟ إلتفت إلي مترددا

ونظر إلي كما لو كان يلاحظ وجودي الآن فقط. ليس صادّا، ليس بجفاء، مباغَتا فقط نظر إلي بعينين رماديتين فاتحتي اللون، تحتهما ظل لفت نظري في الحال. لم تكن ظلالا ناشئة عن التعب ولا أكياسا دمعية، كان ذلك دكنة خفيفة في الجلد لم أكن قد رأيتها تقريبا إلا عند الهنود. معذرة، قال الغريب، ماذا سألتم؟ – لا أريد أن أزعجكم، قلت، سألت عن النبيذ الذي تشربونه. — إنه نبيذ أبيض، قال. رغم أنني أفترض حتما أنه أراد أن يسخر مني، دافعت عن نفسي وقلت: هذا ما أراه بشكل ما. – ماذا؟ سأل. عضضت على شفتي وسألت عما إذا كان يستطيع أن ينصحني أن أشرب نبيذا من النوع الذي يشربه. فكر برهة ثم قال: لقد شعرنا دائما أنه معتدل.

طلبت زالتيمبوكا مع الرز مثل الرجل قبالتي، وقدحا من النبيذ نصف الأبيض. دخن الرجل الذي يجلس قبالتي مشيحا بوجهه. لم أستبعد أن يكون كلانا قد فهم الآخر نصف فهم فقط، فلم يكن يمكن القول أن المكان هادئ. لم تخِطنا فقط القرقعة وخليط من الأصوات وإنما هبطت وأقلعت من وقت لآخر، تحت في الأنغو، أيضا طائرة محدثة الدوي المعهود، وحتى ضجيج السيارات البعيد في الوادي، الذي كان البحر يقويه ويعكسه كان يسمع هنا كحفيف.

حين حضر نبيذي، انتهزت الفرصة للتقرب من الغريب ثانية — أنا إنسان محب للاختلاط وأجد أنه من غير الطبيعي أن يجلس إثنان إلى المائدة ويصمتان –، رفعت رأسي وقلت: في صحتكم، إسمي كلارين. — أجفل حتى أن رماد السيجارة الذي نسي أن ينفضه سقط على فوطته. تناول قدحه باليد اليسرى وقال: يسرني. — لكن بدا أنه لا يريد أن يقدم نفسه بدوره. لاحظت أنه يحمل في إصبعه الوسطى خاتمين، خاتمي زواج بسيطين، استنتجت من هذا أنه ربما يكون أرمل. إنه دليل مهما يكن، قلت لنفسي، إذا كان لا ينفتح مثل الناس الآخرين الذين يستطيع المرء بعد ربع ساعة أن يصنفهم قليلا حتى لو لم يتحدث معهم، على الأقل في حقل: لطيف أو غير لطيف. غير أنني لم أصل إلى حكم حتى من هذه الزاوية. عرفت فقط: أنه يهمني. كان علي أن أفكر في فاليري ثانية، في عدم إمكانية استشفافها التي سحرتني في البدء وأشعرتني بالنفور في النهاية. سألني الرجل الجالس قبالتي: كيف تجده؟ – أجفلت أنا الآن. النبيذ؟ سألتُ. قال: كلا، المنظر، المنظر الخارجي. — قلت: أجده جميلا، الآن بالذات إذ غابت الشمس والمشهد في مواجهتنا يتكون من زرقة متدرجة فقط، بالمناسبة أنا أعرف الطبيعة هنا منذ سنوات. أومأ راضيا وقال. تعرفها منذ سنوات — هذا تحول لطيف، وما يتعلق بالزرقة المتدرجة: لست رساما؟ –

كلا، قلت، أنا حقوقي، محام وأنت؟ – هكذا، قال بمد خفيف بدا لي محتقرا تقريبا، لم يجب على سؤالي، ربما لم يسمعه، فقد جيء بالطعام توا.

قبل أن يتناول الشوكة والسكين خفض رأسه وأغمض عينيه إغماضة قصيرة جدا. فكرت: بالطبع، إنه قس. سروال أسود، سترة سوداء، كان يمكن أن يخطر لي هذا قبل الآن. – أكل ببطء وقد انطوى على نفسه، رغم ذلك حدثته. قلت: اليوم حين كنت أقف في الازدحام عند غوتهارد خطر لي فجأة أنني نسيت ماذا يعني عيد العنصرة، أعني ما الذي يُحتَفل به في عيد العنصرة، أليس هذا مخجلا؟ – توقف عن المضغ، ثم بلع اللقمة وقال: تفرحني أخبار الإزدحام دائما بشكل خاص، ولكن في عيد العنصرة تتراقص ألسنة اللهب. – تابع تناول طعامه بينما سألت، موقنا بأن المرء يجب أن يجاري غريبي الأطوار: أين تتراقص، ألسنة اللهب؟ – تريثَ برهة، صبَّ لنفسه نبيذا وشرب. ثم قال: إنها تتراقص فوق رؤوس الحواريين الإثني عشر، وهم يرمزون إلى روح القدس، الذي يظهر فوقهم وفي داخلهم خمسين يوما بعد عيد الفصح ليثير حماستهم لأفعالهم. – كل الإحترام، قلت، يمكن أن يقدر المرء أنكم رجل دين. – هكذا، قال، والآن أنتم تصححون رأيكم ولا تعتبرونني غريب الأطوار؟ – ذعِرتُ. سألته كيف خطر له ذلك.

العينان يا سيد كلارين، تفضحان الكثير، قال، وأحيانا أستطيع أن أسمع جملة يفكر المتحدث فيها، يحدث هذا بلا جهد تماما ما دام النظر والسمع لم يروضا على عدم الاستقرار . — ادهشني أنه استطاع أن يحفظ إسمي، وبصورة صحيحة فوق ذلك، أي بالتأكيد على المقطع الثاني. وقد وجدت أن من المناسب أيضا أن أعرف اسمه أخيرا. بدا حين سألته عنه وكأن عليه أن يتذكر ثم قال: لوس، لوس بالواو الممدودة، إننا دون شراب، سأطلب زجاجة، هل تشربون معي؟ رفع ما فوق المائدة، جيء بالميرلو بيانكو، سمع صوت بوق خشبي من بعيد. أصغى لوس وهو أقرب إلى أن يكون معذبا. سألت عما إذا كان ذلك يزعجه. قال ليس لديه مأخذ على البوق الخشبي بحد ذاته عموما، يمكن القول أن البوق الخشبي هو الآلة المثالية للأقزام، وثانيا حاشا أن يعيب حرارة العاطفة غير الماهرة، يزعجه فقط إدخال البوق الخشبي إلى تيسين. — يكفيني أنا أيضا عزف الأجراس المحلية الرائع. قلت. — أنتم أيضا تحبونها، هذا يسرني، قال، إنها سبب لمجيئي إلى هنا، وإلا فلا يمكن سماع أنغام حنون في مكان آخر. سألته إن كان يسكن هنا في بيليفو. نعم، قال لوس ورفع نظره إلى الواجهة، هناك فوق، في الطابق الأعلى يسارا، هناك برج مراقبتي، من هناك أستطيع أن أنظر إلى ما هو أبعد من الأشجار والوادي — وأنتم، هل

تقيمون أنتم أيضا هنا؟ – في أغرا، قلت، لدي في أغرا بيت عطلات صغير. — وتستريحون هنا في عيد العنصرة من الإرهاق كمحام؟ – في الواقع لا، قلتُ، إنها إقامة عمل، أريد هنا أن أكتب دون أن يزعجني أحد. — هواية لطيفة، قال لوس، هل ستكون رواية؟ – إنكم تخطئون فهمي، قلت، يتعلق الأمر بعمل مهني، بمقال قانوني تاريخي لصحيفة للحقوقيين حول موضوع قانون الزواج، وخاصة قانون الطلاق، لهذا الموضوع علاقة كبيرة بعملي كمحام. وهكذا نشأ لدي بشكل عرضي اهتمام تاريخي بالمادة.

الآن تشعل الأضواء هناك في الجهة الأخرى، قال لوس. صمتُّ ومسحت نظارتي وقد تكدر مزاجي. نظرة إلى الوراء هي أمر جيد دائما، قال، حقا، النظرة إلى الوراء مهمة، حتى لو لم تكن ملائمة للعصر، إنني لم أعد أكاد أفتح فمي لأقول جملا عن الزمن الحاضر لأن الزمن الحاضر يقطع علي كلامي على الدوام. وحتى حين أقول له فقط: لديك أصل، وأنا أقيسك على هذا أولا وعلى بضعة أحلام صغيرة لم أدعها تطرد مني ثانيا — فإنه يشعر بالإهانة ويقطع علي كلامي، – لست متأكدا مما إذا كنت أفهمك جيدا، قلت، هل تريد أن تقول أن الناس الذين يكرسون أنفسهم لليوم الراهن تماما، الذين، كما يقال، يتماشون مع العصر، يستثيرهم النقد؟ – هذا تقريبا، قال

لوس، ولكن الوقت لا يزال مبكرا. — مبكرا لأي شيء؟ – مبكرا للحديث عن روح العصر وعن تفريخ المدللين، أحتاج قبل ذلك إلى بعض الكؤوس، وتستطيع أنت أن تقدر درجة وجلي في هذا كما في كوني أجلس في هذه الطارمة الجميلة منذ أن جلسنا هنا دون أن أقطب جبيني مرة واحدة رغم أن جوالا قد رن أو صر وما إلى ذلك لا أقل من أربع عشرة مرة في هذا الوقت، وقد أحصيتها، وهكذا، باختصار لا بد أنه أمر يدعو لليقظة، أليس كذلك، أن ترى نفسك في مواجهة قضايا طلاق على الدوام، الا يغريك هذا بأن تعتبر الزواج غير قابل للتحقيق؟ – إغراء ليس الكلمة الصحيحة، الصحيح يقين. إنني أكاد أكون مرغما وأنا أواجه معاناة شخصين دون انقطاع، على أن أرى الزواج كطريق خطأ أو تحميل الطبيعة البشرية فوق طاقتها، تلك التي يبدو أنها تسير إلى الانفلات أكثر مما تدع نفسها تدجن مع الزمن وتستطيع أن تتقبل بضع قواعد لو اتُّبعت لربما جعلت الزواج ممكنا. إن ما يرتكبه الزوجان عند الطلاق يستعصي على كل وصف، قلتُ، سواء في متابعة الأذى الذي ألحقاه ببعضهما خلال قيام العلاقة الزوجية أو في إبطال السعادة السابقة. لكن الأكثر جنونا أن الناس، رغم أن كل واحدة من زيجتين تنتهي بالطلاق، لا يتوقفون عن

الزواج، ويجب أن يعتبر فوق ذلك أكثر جنونا أن يتعلق الأمر في أكثر من عشرين بالمائة من عقود الزواج بالزواج للمرة الثانية.
قاطعني لوس الذي أصغى إلي بانتباه كبير حتى وددت لو أعمق طرحي وأتابعه وقال. وإذن فإنكم عازب. — عن قناعة كما لا بد أنكم لاحظتم. — إذن فإن طبيعتكم البشرية لم تُحمّل فوق طاقتها، هذا يسعدني، قال. وبينما كنت لا أزال أفكر ماذا كان يمكن أن يعنيه، ساخرا أم جادا،

قال بصوت واطئ: لقد كان بالنسبة لي وطنا. — بحثت عن نظرته، لكن لوس كان ينظر عبر الوادي. من؟ سألتُ. الزواج، قال. كان؟ – أومأ برأسه. هل أنتم — أرمل؟ شرب. هل تعرفون، قال ثم أضاف، إحصائياتكم ليست مجهولة لدي، فوق ذلك أعرف أن في كل سرير زوجية يمرح مليونان من عث الغبار، وقد أخذت من دراسة أكثر إقلاقا أن الزوجين الألمانيين بعد ست سنوات من الزواج لا يتحدثان إلى بعضهما إلا 9 دقائق في اليوم والأمريكيين 4,2 . — هو ذاك، هو ذاك، قلتُ فقط. — والآن أسألكم، تابَعَ الكلام، إن كانت هذه النتيجة تسمح باستنتاجات حول الطبيعة البشرية أو ربما كانت أقرب، ضمن غيرها، إلى عادة تلفزيونية مسائية. – إلى كليهما أغلب الظن، قلتُ، فقد افترض مرة أن الصمت المتزايد بين الزوجين يرجع إلى

مشاهدة التلفزيون المتزايدة، هكذا يطرح السؤال نفسه دائما، لماذا تفضل شاشة التلفزيون على ساعة سمر. ليس الأمر هكذا – أسمع هذا كثيرا كمحام –، أن المرء لا يتكلم لأنه يشاهد التلفزيون، كلا، يشاهد المرء التلفزيون لأنه ليس ثمة ما يقال، لأن المرء لم يعد لديه ما يقوله، وبالذات ما هو جديد أو مثير، *لقد وصلا طريقا مسدودا* : هذا هو التعبير الذي سمعته أكثر من غيره، ومنه استنتج أن الطبيعة البشرية تحن إلى التغيير والتلون وأنها لا تعتاد العادة. – إذا أردتم الحق، قال لوس، لديكم كل الحق، وكما قلت، لقد خبرت الأمر بصورة مختلفة، في صحتكم.

في صحتكم أيها السيد لوس، لم أرد أن أسيء إليكم، أعرف بالطبع أن ثمة زيجات سعيدة أيضا. – هذا لا يهمني، قال .- معذرة، ظننت أنه موضوعنا.- إنه لأمر غريب، قال، كلما أصبح تسرب روح العصر إلى أرواحنا أكثر سطوة وحدد سلوكنا،

كلما استشهد المرء بطبيعة الإنسان بضيق أفق أكبر. يكاد المرء يعتقد أن الأمر يتعلق بحنين لأن طبيعتنا أجدبت منذ وقت طويل، وليس بحيلة تستهدف تبرئتنا: كل شيء محكوم بالعوامل الوراثية، كل شيء يعذر، ألا نظرتم إلى قرود الشمبانزي، إنها لا تعقد زيجات، إنها تنتقل في علاقاتها وتبقى نشطة.

يبدو أن لوس لم يلاحظ أن ذبابتين جامعتا بعضهما فوق رأسه وهو يتحدث. إنه، وهو ما استنتجته من هذا، مستثار بشكل غريب، عليّ أن أهدئه. إنه لا يعتقد أنني كنت سأصبح حقوقيا لو كنت أضع القدرة على التمييز والذنب موضع تساؤل، قلت. الأمر فقط هكذا ببساطة أنني لا أستطيع أن أغلق صدري عن معرفة علمية، وهذا يظهر دون شك كم هي ضيقة الفسحة التي تتركها لنا الجينات. شرب لوس وهز رأسه، قبل خمسة وعشرين عاما كان العلم قد أثبت بشكل قاطع أن البلادة أيضا قابلة للتعلم وأن الفرد قد شُكل حتى النخاع ووضعت له مقاييس وشوه بوجه عام من خلال تأثيرات خارجية. قلت: إن العلم لم يعتد أن يتوقف، لكنني أقررت أن الحقيقة ربما تقع في الوسط. التمسني أن أوفر عليه الوسط، قال إنه أكبر سنا من أن يكون مناسبا له. إنه لا يفكر على أية حال أن يومئ بأدب حتى نهاية حياته لكل جانب، والآن تخطر له تكملة حول ما تحدثنا عنه بشكل عابر من قبل. كيف يحدث أن يجلس الناس سعداء أمام شاشة التلفزيون مساء بعد آخر، مدمنين على ما هو متشابه دائما، على مسلسلاتهم على سبيل المثال، على برامج حزوراتهم وما إلى ذلك، والتي تكمن جماهيريتها كما هو واضح في كونها تعيد بشكل دؤوب الشيء نفسه. كيف يحدث أن يتعلق مئات الآلاف بشارب مقدم برامج أو مدير

ندوة وتمضي صرخة عبر البلاد إذا ما ظهر مقدم البرنامج أو مدير الندوة دون شارب.

كيف يمكن تفسير كون الرغبة في الرتابة لا تستيقظ إلا أمام شاشة التلفزيون، ولكن ليس في بقية جوانب الحياة اليومية للزوجين. لا يكاد المرء ينهض من أريكته أمام التلفزيون حتى يفكر في الطلاق، فقط لأن الشريك غسل أسنانه مثل ما فعل بالأمس وتغرغر بعد ذلك كما اعتاد أن يفعل. أين يكمن معنى طبيعتنا أيها السيد كلارين؟

لا يبدو لي السؤال سهلا. قلت، أشعر بالبرد قليلا في هذه اللحظة، أريد أن آتي بالسترة سريعا من سيارتي، ورجوته أن يعذرني برهة. لا تجُع، لا تعطش، لا تتجمد من البرد، قال لوس، نحن متفقان إلى هذا الحد، ربما خطر لكم شيء آخر. — نظر إلي مؤملا حين عدت وسأل: ثم؟ – وجدت نفسي مثل تلميذ ثانوية يقف أمام السبورة معَرّضا لنظرات تلاميذ الصف، يرد بالنسيان على "ثمّ" المعلم المؤملة. سألني لوس عما إذا كنت بخير. أجل، قلتُ، تخيلت نفسي لمدة ثوان فقط كما في السابق، حين امتحنني المعلم. يا لله، هتف لوس، هذا يؤسفني، لم أقصد أن أمثل دور المعلم، لقد سألت مدفوعا بفضول صادق، أنتم رجل شاب ولكم أفق آخر، لكم معرفة أخرى، أما أنا فرجل كهل لا يخلو من ميول إلى التصلب، وهو ما يجعلني أبذل جهدا جهنميا لأبقى

قادرا قليلا على التعلم. — صمت. فكرتُ في جواب. لكني في أعمق أعماقي لست منفتحا، قال بصوت خفيض، هذه لعنة الإخلاص. — قلتُ إنه يقدم لي كلمة البدء، يمكن أن يكون الحال أن طبيعتنا تطلب الإثنين، الصلب والسائل، التكرار والتغيير، الثبات وعدم الثبات. قال لوس إنه سيوقع على تشخيصي ولو لم يكن مقنعا تماما. قلت إنني أدرك أن كل شيء أكثر تعقيدا. هذا أيضا يفسر الأمر،

قال.

غير النادل منفضات الرماد، سُمع دوي بعيد، رفعت رأسي ورأيت نجوما فقط. اتقدت سيجارة لوس التي كان قد ضغطها، ارتفع منها خيط من الدخان وفكرت ثانية في فاليري التي لم تفلح أبدا في أن تطفئ سيجارة من المحاولة الأولى. قد يكون واهما، قال لوس الآن، ولكنه يعتقد أنه قد رأى من الطريقة التي مسحت بها نظارتي كم أنني أقف في الحياة بشكل بديهي، أيكون ظنه صحيحا يا ترى. فكرت إنه يخرف قليلا وسألته بدوري عما إذا كان يستطيع أن يحدد بصورة أدق النوع والطريقة التي مسحت بها نظارتي. كما قلت، شيء بديهي، قال، كشيء ثانوي وبدون خوف من احتمال خروج الزجاجتين من إطارهما، من احتمال أن تسقط النظارة من يديك وتتحطم. — إنني لا

أشعر بهذا الخوف بالفعل، قلت، ولو لم أكن فإن احتمال وقوع ما يخاف منه يكون أكبر. إنه مثل التعثر. من يتقدم بخوف دائم من التعثر فإنه يتعثر بالتأكيد، باختصار إنه غريب علي أن آخذ أشياء الحياة بصعوبة أكبر مما ينبغي، إنه لم يخطئ في هذا. — هذا يبدو معقولا، قال لوس، ومع ذلك فإنه مقتنع أن المرء يتعثر بشكل أكبر كثيرا بسبب عدم الانتباه مما يفعل بسبب الخوف من التعثر. — طلبت منه ألا يحدثني بالتعثر، أردت أن أقول ببساطة أن المرء يمكن أن يخاف من الحوادث المؤلمة بصورة متساوية، وهو ما لا يعني أنه توجد حوادث أخرى تصيبنا مثل البرق من سماء زرقاء.

بحث لوس في جيب سترته وأخرج دفترا أسود ذا لولب وقلم رصاص أسود صغيرا. قلب الدفتر وبحث كما هو واضح عن صفحة خالية. رغم أنه بذل جهدا أن يحجب دفتره الصغير بيده اليسرى رأيت أنه مليء بملاحظات وتخطيطات بالغة الصغر.

كتب شيئا لا يمكن أن يكون أكثر من كلمة وأدخل الدفتر في جيبه ثانية. ثم قال لنفسه أكثر مما لي: إن في ذلك شيئا من الصحة، لقد خفت دائما أن أفقد زوجتي وفقدتها ذات يوم، ومع ذلك كان الأمر برقا من سماء زرقاء. – هذا يؤسفني، قلت. أومأ برأسه وشرب. بعد فترة من الوقت سألته متى توفيت. لا يستطيع أن يتحدث عن ذلك في

هذه اللحظة، ربما فيما بعد، قال، علي أن أحدثه قليلا عن نفسي، عما إذا كنتُ مرتاحا بعزوبيتي مثلا. قلت إنني كما ذكرت سابقا لست عازبا رغما عنه، أردت أنا وضعي وهو يناسبني. التنازل عن عدم التبعية والاستقلال أمر لا يمكن تصوره بالنسبة لي، وغير ضروري للتمتع، كرجل غير مرتبط، بالمسرات التي تقدمها الحياة دون هم. التهمة بأني خفت من تحمل المسؤولية يجب أن أردها عن نفسي، وذلك لأنها جاءت دائما من قبل الذين يئنون منها. — إنكم لا تقفون هنا أمام محكمة، قال لوس، ولكن تابعوا الكلام. — بالطبع يحدث أحيانا أن تنهمر الدموع، قلت، حين أكون أمام إمرأة تنتظر مني أكثر مما أستطيع أن أعطي، أكون صادقا معها وأطرح أمامها فكرة الانفصال، إلا أن هذه الدموع هي أشياء صغيرة بالمقارنة بأي نوع من بؤس الحياة الزوجية. غالبا ما تكون المسألة قد نسيت بعد وقت قصير، تذكرت اليوم مثلا على هذه الشرفة صديقة كنت معها منذ وقت طويل آخر مرة هنا، و لم ينهَر العالم بالنسبة لها أيضا. هكذا هو الحال غالبا: العلاقات المسترخية تمنع وقوع المآسي وتقدم فوق ذلك حماية من المصير المحزن الذي قلما ينجو منه الأزواج التقليديون. — هنا توقفتُ قليلا لأشرب جرعة، فسأل لوس وهو مهتم بالموضوع: ألا وهو؟ - كنت قد لمّحتُ، قلتُ، إلى أنني أتحدث عن السلم المتدرج

للزواج، الذي ينحدر من الرغبة إلى المودة، إلى العادة، إلى انعدام الرغبة حتى النفور، وربما حتى الكراهية،

ثم تأتي ساعة المستشار بدبلوم أو بدون دبلوم، وربما أشعل ثوب نوم شفاف أو لباس داخلي يائس بضع شرارات أخيرة، ثم تأتي ساعة المحامي.

لماذا أنتم مستثارون هكذا؟ سأل لوس، لا أحد يدعي العكس. الزواج يناسب القليلين فقط ويحمل الغالبية فوق طاقتها، ألتمس منكم شيئا واحدا فقط، ألا تستعملوا كلمة *أستثمر* حين تتحدثون عن العلاقات، أنظروا — هنا سحب لوس كمي سترته إلى الأعلى قليلا وأراني ساعده الذي رأيت عليه بضع نقاط حمراء -، أنظروا، إنني مصاب بالحساسية. — ضحكت، ظننت أن الأمر مزحة، لكنه بقي جادا وقال، إنه يقرأ كثيرا إعلانات البحث عن علاقات ويحبها لأنه يريد أن يبقى في أوج أيامه التي تنعكس طبيعتها في إعلانات الصداقة أيضا ضمن غيرها. هنا عثر مؤخرا على إعلان رجل في الثلاثين يصف نفسه بأنه *عالمي* وعدد بعد ذلك مباشرة في حقل *السمات المطلوبة* الصفات التي يحتاجها في الرفيقة التي يرغب فيها، هنا انتبه لوس إلى ساعده الأيسر لأن بقعا حمراء ظهرت عليه خلال وقت قصير. — قلت نصفَ ضاحكٍ، نصفَ متكدر، سأبذل جهدي أن أراعي حساسيته،

رغم أنه يصعب علي أن أزن كل كلمة بميزان الذهب. — ليس كل كلمة، كلا، ليس كل كلمة، قال لوس، وفي الواقع أنا أحسدكم لكونكم، قدر تعلق الأمر بمشاعركم، مستثمرا ومساهما مترددا، هكذا تبقى الخسائر قابلة للتحمل. من ناحية أخرى ينبغي التفكير في أنه كلما قلت المخاطرة صغرت إمكانيات الربح، فما الذي يحققه دفتر توفير من الأرباح؟ بالكاد، القدر الذي يكفي لبضع رحلات من زيوريخ إلى اورليكون، بينما إذا استثمر المرء رأسماله بجرأة أكبر، إذا حالفه الحظ، يربح ما يكفي ليستطيع الإبحار حول العالم، أليس كذلك؟ - أسمح لكم دون تحفظ أن تسخروا مني، أنا لست حساسا جدا، بالمناسبة فهمت ما تعنون، ولكن في مقارنتكم فقط شيء ما غير صحيح، إنها تأخذ كلمتي حرفيا. ليس لدينا سلطة على المشاعر، أعرف هذا أنا أيضا، إنه ليس عادلا أن تبرموا لي من ذلك انشوطة، لأنني لم أعش بعد ما يسمى بالحب الكبير. هل علي، لأنه لا يلوح لي في الأفق إبحار حول العالم أن اتخلى أيضا عن رحلة صغيرة؟ - نعم، أترون، قال لوس، قبل الآن بدا كل شيء مصمما مسبقا كما لو كنتم تسيطرون على كل شيء، الآن يبدو أكثر إنسانية، ولكن ليس من حقي على هذا النحو أو ذاك أن أقيّم نظام حياتكم، لا أريد أيضا أن أسألكم عما إذا كان الأمر سيبقى عند القليل من الدموع، إذا التقيتم

إمرأة تحبكم حبا أعمى ومؤكدا، وإذا ما، كيف أعبر عن ذلك، نجحت اجراءاتها في تجنب المأساة. إجل كما ذكر، لكم أن تصدقوني، يصدر عني أيضا قليل من الحسد، فلدي تعاطف مع الحب الخاطف، مع الشكل اللاهي للحب، ولكني لا أكاد أعرفه، إنني أثقل مما ينبغي لهذا، ولا أجرؤ عليه حتى وأنا الآن حر في الظاهر. سألتكم عما إذا كنتم مرتاحين في عزوبيتكم، أردت أن أسمع مدحا لها لأنها لا تريحني، لأنني لا أستطيع أن أرى الجوانب الايجابية فيها إلا قليلا. ما أراه على العكس، لأذكر شيئين فقط: كم تبدو فرشاة أسنان تقف وحيدة في القدح حزينة، وكم مرة ينقصني في المساء سبب لأغفو، عناق مثلا، قبلة، أو لنقل خصومة، باختصار شيء ما يسمح لي أن أدير وجهي إلى الحائط وأغوص كشخص مرتاح أو معوج معاند، معذرة، أحس بالنبيذ قد صعد إلى رأسي، أعتقد أن الوقت قد حان للذهاب. — أتريدون الذهاب الآن؟ – حان الوقت لروح العصر، قال لوس، ولكن قبل هذا يجب أن أذهب بسرعة إلى غرفتي، حتى اللقاء القريب. — قلت بينما كان هو قد وقف إننا تحدثنا عن روح العصر بهذا وذاك. — مدجن أكثر مما ينبغي، غمغم لوس، مضى بضع خطوات، مشى مثل الدب، ظل واقفا، إلتفت ونادى بصوت عال حتى أن بقية الضيوف صمتوا: مدجن أكثر مما ينبغي!

شعرت أنا أيضا بالنبيذ يصعد إلى رأسي، ولكن لا أثر للتعب بأية حال. في هذا شيء غير صحيح، فكرت، وهو ليس رفيقا مريحا، ومع ذلك أردت أن أتشبث به بمخالبي قبل قليل، حين أعتقدت أنه يريد أن ينصرف. ولكن كيف حدث هذا؟

هكذا، قال، ها أنني أعود، هل لفت انتباهكم أنتم أيضا أننا ما أن ندخل مرحاض غرفة فندق، حتى نحصل على ما يسمى بكيس النظافة لحاجيات النساء؟ – هل يزعجكم هذا؟ سألتُ. كلا، قال، إنه يجعلني فقط أشعر بالخجل، وعلى العكس يزعجني جدا أنني ما أن أعود إلى الغرفة وأشغل التلفزيون قليلا حتى أرى نساء نضرات، يمرحن مغتبطات على الشاطئ بفضل حاجيات النساء هذه. — ربما كان عليكم أن تواجهوا هذه الإعلانات بمرح أكبر. — لن أنجح في هذا يا سيد كلارين. ولكن في الواقع فكرت فوق، في غرفة الحمام، في السلم المتدرج للعلاقة الزوجية الذي تحدثتم عنه والذي يقود بالنسبة لكم من السماء إلى الجحيم. لكن العلاقة الأكثر إثارة تقدم صورة أخرى، لدي خبرة أثنتي عشرة سنة، إنتظروا، سأرسمها لكم. — سألت بينما كان يخرج الدفتر الصغير وقلم الرصاص، عما إذا كان يمارس مهنة لها علاقة بالتصميم. بشكل شخصي فقط، قال بفظاظة، ورسم بسهولة سلما، تحيط بقاعدته ألسنة اللهب يرقص حولها شياطين بقرنين ونهايته

العليا تستند إلى غيمة يجلس فوقها ملاك. قد يحدث أن يبدأ المرء معا من الدرجة الأعلى، قال لوس، تحت السماء السابعة بقليل، عشق، وله، غريزة. قد يحدث أن ينتهي المرء إلى الدرجة السفلى، فوق نار الجحيم بقليل. نفور، قرف، كراهية.

أقول قد يكون، فليس حتى هذا مؤكدا. ولكن يبدو لي قبل كل شئ أن تصوركم فاته أن الأزواج يهبطون في نفس الوقت بمشاعر متماثلة من درجة إلى درجة، أحدهم على مهل، الآخر بسرعة، ولكن دائما كتفا إلى كتف. هكذا ميكانيكيا، أكاد أقول: لا يمضي المرء على هذا السلم بنفس الاتجاه بانسجام، هنا تسود حركة نشيطة وليست حركة منظمة باتجاه واحد هدفها الجحيم، فالقسمان يصعدان ويهبطان، إنهما يلتقيان خلال ذلك وربما جلسا في مرحلة ما بعض الوقت على نفس الدرجة، وإذا أمكن في نفس العلو، حيث يعيشان الثقة ومشاعر القرب، وهو ما يجعلهما قادرين على يكونا بعيدين عن بعضهما، أن يلوحا لبعضهما متجاوزين أيضا درجات مختلفة. إذا كانا محظوظين يستمر الحدث الديناميكي على هذا السلم الحياةَ بأكملها، وفي الحالات الاستثنائية يعيش المرء تجربة أن الكراهية لا تقتل بالضرورة، بل على العكس. ما رأيكم بشيء من الجبنة؟ هل تشاركونني؟

بكل سرور، قلت، ولكن ماذا يعني على العكس؟ – أغلق لوس دفتره الصغير و لم يجب. فتحه ثانية، أشار إلى صورة مرسومة رسما بسيطا جدا وسأل: ما هذا؟ يشبه ثمانية، قلت، يمكن أن يكون ساعة رملية. – أومأ برأسه، إنه قامة زوجتي، قال ونادى النادل. بعد أن طلب قلتُ، ليس لي تماس مع حالات الحظ والحالات الاستثنائية في مكتبي للمحاماة ولا أستطيع أن أكتشف شيئا منها خارجه أيضا إلا نادرا. – لو استطعتم كثيرا لما كانت حالات حظ، أليس كذلك، لدي شيء أردت قوله، ما لا تفهمونه، ولا أفهمه حتى أنا نفسي، يمكن أن يحدث أن يستطيع المرء أن يحب حقا، ربما حبا صادقا فعلا، ما كان يكرهه. – بدا لي هذا مبالغا فيه أكثر مما ينبغي، لم يخطر لي شيء حول هذا، أكلنا الجبنة صامتين.

بحثت عن نقطة وصل. إنه إذن يرسم بصفة شخصية، قلت، ما إذا كان يفشي لي ما يعمله مهنيا. يدرس لغات ميتة، قال، لكن ليس هذا موضوعنا الآن. – ساد الصمت ثانية، وأخيرا قلت إنه استخدم تعبير *مدجن جدا* قبل أن يذهب إلى غرفته، وذلك بصوت مرتفع نسبيا، حتى أنه بقي في أذني. ما إذا كان ... – صحيح، قاطعني لوس، يأكل المرء ويشرب ويتبرز، يجعل الخمسة عددا زوجيا ويرفع مرفقيه غير مكترث. كان علي أن أنشغل بالزمن والعالم ثانية بتركيز أكبر على

الرغم من عمري المتقدم والرجفة المرتبطة به، بحدة أكبر، وبقسوة أكبر وأسيء الظن بكل خلجة من الرقة. من ينبغي أن يتشمم ما يحدث، حين يصبح الشبان أغبياء من فرط النشاط المحموم، هذا يعني من عدم الاكتراث والشيوخ من الإفراط في التسامح؟ باختصار لقد صممت بشدة ألا أصبح بليدا وداجنا، وإن كان علي أن أعترف أن عزوفي عن الاستسلام غير قائم على أسباب موضوعية، وإنما فقط صحيا، أعني صحيا للنفس، هل تفهم؟ – ليس تماما، قلت، فأوضح لوس أن المسألة بسيطة. فلو كان تخليه عن الاستسلام قائما على أسباب موضوعية، فسيعني هذا أنه يعتبر الجنون الذي يعجن كل شيء وكل شخص عكسيا وقابلا للشفاء، إنه بكلمة أخرى يؤمن بالخلاص، وهو حمق تقريبا مثل الأمل في أن يضوع عطر الياسمين فجأة من حفرة المرحاض. إذا كان لا يستطيع أن يغير شيئا في الجيفة فإنه يريد على الأقل أن يسميها باسمها ويواجهها لنقل بمنخارين مفتوحين، فإنه مدين لروحه بذلك. فهي، روحه تشعر بأن العجز إساءة، بل أسوأ منها، بل ستشعر بالعار لو أنه أغلق النوافذ معرضا عن الزمن والعالم.

شرب لوس، أصبت بالدهشة للكمية التي احتملها. تكلم وهو مسيطر على نفسه، لم يكد يتجشأ وجلس مثل الصخرة.

إلا أنه تعرق كثيرا ومسح بين حين وآخر بمنديله صلعته البراقة. — أنتم تكرهون العالم، أليس كذلك؟ سألته ودون أدنى تردد قال: من كل قلبي. — إذن فأنا مطمئن، قلت وأخرجته بهذا عن طوره قليلا. حك رقبته. بحث في جيوبه كلها عن ولاعة كانت موضوعة أمامه. أتدرون، قال، أوضح لي شخص ما مؤخرا أن الكراهية يمكن أن تكون شرطا مسبقا للحب. — إحمر لوس، وحين ظننت أنه سيتناول سكين الجبنة ضحك ضحكة قصيرة ثم بلع ريقه جاهدا في السيطرة على نفسه. ضحكه خفف عني وأنهى التوتر الذي أوقعتني فيه جديته المتحجرة. تجرأت الآن أيضا أن أتصرف بقدر أقل من التحفظ. سألتُ، هل يمكن أن يكون واحدا من أولئك المثاليين المكتئبين الذين وُجِدوا كما هو معروف في جيله والذين يأخذون على سير العالم أنه لم يعبأ بأحلامهم. ما إذا كان ممكنا أنه يجد أن كره الحقيقة أسهل من تصحيح تصوره الشبابي عنها. ما إذا كان غاضبا مني إذ أشعر بالاستياء حين يلعن العالم دون أن يأتي بشيء ضده غير كون وجود التلفونات الجوالة وأكياس الحفاظات أو الإعلانات عما يحتويه الكيس يزعجه. — صمت لوس. أين يتعين علي أن أبدأ؟ سأل أخيرا، صمت مجددا. ثم قال: تناسب الحال الآن كلمةُ رعدٍ أصلية وكونية، كما تتوقع مني. ولكن للأسف لا يخطر لي شيء. ولن أعود إلى الكيس

ثانية ولا إلى استنزاف عصارات الجسد. من المعروف أن كل شيء يسوّق، وفي وسط ساحة الشحن والتفريغ الصاخبة التي يعرض فيها خلال ذلك كل واحد وواحدة تقريبا كمنتج ممتاز ينبغي أن يكتسح ويتفوق المنتجات الأخرى، أقول، يشعر الفرد، ما دام لا يزال يشعر، أنه فارغ قليلا، محمّل فوق طاقته قليلا ووحيد جدا. والآن تأتي البركة: لا يخذل السوق ضحاياه، إنه يظهر شعورا بالمسؤولية. يعرض على الفارغ، ليس مجانا بالطبع، تسليةَ، وعلى المرهق برنامجا ضد الإرهاق زائدا كبسولات الجينسنغ وعلىالوحيد جوالا. أليس هذا مؤثرا؟ كيف خطر لكم أنني أكره العالم بسبب التلفونات الجوالة؟ ومع ذلك ليس كل ما في تجنيكم خطأ أيها السيد كلارين. صحيح أنني قبل بضع سنوات حين بدأ الازدهار المذكور شعرت بالجوال ككابوس، كظاهرة مزعجة لمرض التعري الذي بدأ يومذاك يحقق نجاحا في التلفزيون أيضا. شاركت أناسا كثيرين أقدرهم نفوري، وأنا لا زلت أقدرهم رغم أن الرنين ينبعث اليوم من حقائبهم وجيوب ستراتهم. لكن النقد لم يعد مناسبا الآن، وإلا فإن المرء يريد أن يكسب سمعة أن يكون عقلا غير مرن. إنني أضجركم، أليس كذلك؟

قلت إنني طرحت عليه أسئلة لأسمع أجوبة. أشكركم، قال، لم أعد منذ أن فقدت زوجتي قبل حوالي سنة محبا للحديث، وإذا ما كنت

كذلك مرة فإنني أحس أن المرء يصغي إلي بدافع المجاملة فقط. حسنا. في اللحظة التي تسود فيها نزعة ما، حتى لو كانت تحمل صفات جنونية، فإنها تصبح أيضا على حق. ما يفعله الكثيرون ويؤيدونه لا يمكن أن يكون خطا: هذا هو المنطق، أليس كذلك. منطق الغباء الذي يعتبره كل ناقد غبيا، أليس كذلك، إنني أفقد الخيط. أردت في الأصل أن أقول أن الجوال يقرفني لأنه يمارس تصفية ما هو شخصي وحميم وبشكل جانبي يرفع مستوى الضجيج في العالم. لكني أجد أن ما هو مقرف أكثر أن تكون التحفظات ممنوعة. إذا ما أصاب الفيروس — أيا كان — الجميع فلا يحق للمرء أن يسميه فيروسا بعد ذلك. في البدء نعم، لدى المرء في البدء أعداد كبيرة من الحلفاء. ولكن كلما تضخم التيار كلما تصرف بصورة أكثر بديهية، أكثر حمقا، بل أكثر دكتاتورية، وكلما زاد عدد الذين يسقطون حوله وفيه، وأنا أقف بغباء على الشاطئ،

وآخر ما يزعقون به في أذني، كجوقة، هي كلمات: "من يتغير فقط يبقَ وفيا لنفسه!"، بينما يقف الواحد منا مثل كائن متحجر على الشاطئ. هكذا هو الحال يا سيد كلارين، كان كذلك دائما، لهذا لا يجوز الحنين، لقد شهدت سابقا وكثيرا كيف أصبح رفاق دربي موردي زيت لتلك العجلة التي أرادوا أن يمسكوا بها من أسلاكها،

وفي ذلك كانت الروح السائدة يومذاك، والتي شعرنا في ربيع عمرنا، وكنا على حق، بأنها تحتقر الإنسان، أكثر إنسانية قليلا من ذلك الذي لم يرتاحوا له فيما بعد وحسب وإنما أيضا ساعدوا من مناصب مختلفة في نجاحه، ولنذكر مثلا حين بدأت السوق التي كان مُسيطَرا عليها إلى حد ما، تنفلت، وخرجت عن السيطرة، وأظهرت دون حياء بصدق أنها لم تعد تحتاج الأخلاق إلا كمعطف صغير واعتبرت شيئا مثل كرامة الإنسان بقية مضحكة لليسار الصائر إلى الموت، هنا كان الكثير من رفاق العمر يجلسون الآن في أرائكهم ويشاركون في الأمر ويقولون لأنفسهم: من يتغير فقط يبقَ وفيا لنفسه. — ومع ذلك يا سيد كلارين، يوجد أخيرا أمل، قرأت مؤخرا في صحيفة اقتصادية أنه يُنصح بالإنسانية المعاشة في موقع العمل وبشكل عام. وهكذا فإن إنسانية جديدة تشق طريقها، هذا ما ظننته، ثم تابعت القراءة وأصبت بالطفح، أعني على ساعدي. إن الإنسانية لمجزية، كُتِب، إنها تحقق فوائد في المنافسة، تزيد الإنتاجية، وأنتم أيها السيد كلارين — هنا فقد لوس سيطرته على نفسه وضرب بقبضته على المنضدة –، تتهمونني بأني أكره العالم بسبب أكياس الحفاظات والتلفونات الجوالة.

تمالك لوس نفسه ثانية في الحال واعتذر لانفجار انفعالاته كما قال. سألته برفق ما إذا كان يحمل الانطباع فعلا بأنه يعيش في زمن أكثر فسادا مما كان قبل خمسة وعشرين أو ثلاثين عاما.

أجاب لوس، بأنه سبق أن ذكر أنه لا يسمح لنفسه بالنظر إلى الوراء بعين دامعة. كل زمن فاسد بطريقته الخاصة والجديدة، إلا أن ثمة عهودا امتلكت الطموح في أن تتفوق على الأخرى ببلادتها ودناءتها. لكنه لا ينظر بشكل أساسي إلى التاريخ كتاريخ سقوط، هذا يعني عملية تسير دائما إلى الإخفاقات، بالطبع ليس أيضا كتاريخ خيّر يتحول كل شيء خلال مسيرته إلى الأفضل، إنه أكثر من هذا، يفهم التطور التاريخي كعملية تبادل متعجلة. إذا اختفى شر من شرور الأمس يحل محله اليوم آخر من نوع جديد. إنه مثل الحمى القلاعية: لا تكاد تبدو أنها قد انقرضت حتى يظهر جنون البقر. كل شيء يمضي على هذا النحو، وكمية الشرور تبقى نفسها تقريبا، في مستوى عال يدعو لليأس، فقط تأخذ طريقها بشكل أكثر سرعة وعلى مساحة أكبر بفضل إطلاق المدفعيات العالمية، حتى يكاد كل طفل يلعب خلال أسابيع قليلة بألعاب كيم بوي وتكاد كل امرأة تقريبا تندفع بين ليلة وضحاها عمليا داخل سروال للدراجات مطعم بالفوسفور أو، حالما يتبعه قسر آخر، في سروال ضيق يصل حتى الركبة مزين برسوم

نمور. رغم أن هذه أمثلة غير ضارة وقد أصبحت اليوم قديمة ومع ذلك فهي واضحة.

سألتُ لوس عما إذا كانت زوجته قد ارتدت سروال دراجات أو سروالا ضيقا حتى الركبة. كان جواب لوس بالنفي. — أترى، هذا هو ما يزعجني، قلتُ، حكمكم عام دائما. أنتم تعتبرون سروال الدراجات شرا، حسنا، هذا من حقكم، لكنكم تتصرفون كما لو أن الشر في كل مكان، كما لو لم يكن ثمة شيء آخر إلى جانبه. إنني مقتنع: لو حصلتم على تسع وردات رائعة فإنكم لن تروا سوى الواحدة المتضررة قليلا، وإذا امتدح أحد الثماني السليمة فإنكم ستعتبرونه أعمى أو غبيا.

من يرى كما ترون لا بد أن يتوصل إلى نتيجة عالمية خطيرة، وإن المرء ليتساءل كيف ولماذا يتحمل في هذا الظلام. — أجاب لوس، حين تقارنون الأمر بباقة ورد فحافظوا رجاء على النسب. ثمان من وردائكم التسع متضررة، وواحدة في أفضل الأحوال سليمة. من الذي يرى بشكل أكثر اعتدالا: ذلك الذي يرى الوضع الحرج للباقة أم ذلك الذي يمتدح مسرورا الوردة الصغيرة التي لا مأخذ عليها؟ بصرف النظر عن هذا، قلت، ما إذا كانت النسب صحيحة فالجواب على ذلك سهل: الأكثر اعتدالا هو ذلك الذي يرى الاثنين، ففي

النقص تكتسب النظرة حدة لرؤية ما هو موفق وفي ما هو موفق حدة لرؤية النقص. — ليس سيئا، ليس سيئا، قال لوس، ربما فقط أبسط مما ينبغي. إنكم تنسون النقطة الأهم، أود أن أوضحها في مثالكم. لنفترض أن أربع وردات كانت في وضع جيد وكان خمس منها متضررا موضوعيا، فإذا رأى المرء أنها تبدو جميعا هكذا لأنها ملفتة للنظر، فإن المرء يكون مخطئا. يحتاج المرء أن يلح على الناس بتركيز فقط بأن الوردات الذابلات رائعات، هكذا تتكيف الرؤية، ويشعر الناس بأن الوردة الذابلة نضِرة والعكس صحيح. ليس الجميع بالطبع، ولكن الكثيرين عادة، حتى أن أولئك الذين يثقون بأعينهم وحكمهم الخاص، يبدأون بالشعور بأنهم غرباء، بل بأن يسألوا أنفسهم عما إذا لم يكونوا متشائمين، متبرمين ويدعون الأهمية. — معذرة أيها السيد لوس، ولكن إذا ادعى أحد الآن في حاضرنا الجماعي، أنه يعرف ما هو طيب وما هو سيء وما هو صحيح وخطأ، فإنه بالفعل دعي، وعلى المرء أن يسأله من أن يأتي بالمعايير التي تسمح له أن يصدر حكما موضوعيا كما يعتقد. — إنك تؤيدني بصورة غير مباشرة، أجاب لوس، إنك أنت أيضا فارس من فرسان روح العصر، يلقح الإنسان أولا بأن كل شيء اختياري ونسبي، ثم يعلن المرء أن أولئك

الذين يصرون على الإلتزام أدعياء أو، وهذا ما هو أسوأ، متوحشون.
– حسنا، خففتُ عنه، يهمني، بم تثبتون أحكامكم على القيم؟
دخن لوس، شرب وفكر. ثم قال: لنأخذ الناس بدل الورود، وننظر حولنا إلى جميع القارات وفي جميع الأزمان. كان الأمر ولا يزال سهلا، أن تقنع مجموعة – أ – من الناس أن مجموعة – ب – من الناس هم جرذان ينبغي القضاء عليها. يجب أن يقول المرء ذلك بصوت عال ببساطة ولفترة طويلة وسيجد ما يشاء من الرجال الذين انتظروا أن يُشجَّعوا على القتل. وكذلك ما يشاء من النساء اللاتي يشاركنهم برغبة وعنف. أعتبر هذه الواقعة مرعبة، وإذا كنتم فضوليا لتعرفوا بم أثبت حكمي للقيم فإن علي أن أترك المائدة.
قلت له أن تهديده لي يجعلني لا أشعر بالارتياح، وهو أيضا فائض لأنه لم يخطر لي أن أسأل أحدا لأي سبب يجد اللاإنسانية لا إنسانية.
سألته، سألتُ لوس، فقط عن المعايير التي اعتاد أن يعتمد عليها في الحكم على ميول العصر، التيارات والمودات التي تسمح بتقييمات مختلفة حسب اختلاف وجهات النظر. لم تكن الجريمة موضوع حديثنا، أما ما يتعلق بمبدأ الجرذان، فإنني أتفق معه في الرأي تماما، لدي انطباع فقط، كما سبق أن ذكرت، بأنه لا يرى على الأرض سوى الأهوال، ومن هنا سأل كيف ولماذا يتحمل هنا. وهذا السؤال

يتضمن بالطبع سؤالا آخر: عما إذا وجد بالنسبة له ما هو مضيء وجميل. — بالطبع، قال لوس، دون تردد، بالطبع يا سيد كلارين، الموسيقى مثلا، على الأقل حتى وقت قريب، ولكن في الواقع لا تزال رغم التجارب المحزنة التي عشتها معها. لقد أصغيت قبل وقت قصير إلى موزارت ليلة كاملة، إلى أكثر الأشياء مرحا وأروعها،

ورغم ذلك لم تخرج مني كراهية العالم و لم تتغلب عليها، على العكس، أظهرت لي الموسيقى أن الجمال ليس عزاء وإنما برهان على البؤس. رغم أنها تريد أن تنسيني ما هو موجود حولي وما هو معمول به، من خلال هذا بالذات تذكر به. أو لنأخذ روائع هايدن، لا يحتاج المرء أن يكون حزينا ليبكي حين يسمع مواضع معينة، لكن المرء لا يعرف ما إذا كان يبكي بسبب جمال الموسيقى أم بسبب الحمد المدوي للخالق أم بسبب الفجوة بين حمد الخالق والخليقة المشوهة. المسألة الأساسية أن المرء يبكي، أليس كذلك، يُهز ويُليّن ويلاحِظ في هذا أنه ليس حجرا، رغم أن...

رغم أن؟ تمخط لوس وقال: رغم أن للأمر مضارا أيضا، فالمتحجر يعيش غير متأثر بالمناخ، أجل مهما يكن، فإلى الجميل، المضيء الذي سألتم عنه تنتمي أيضا الذكريات، أعني تذكر زوجتي، وجودنا معا، ساعات منفردة، حركات، جمل. إنه شيء جميل أن نتذكر ما هو

جميل، فقط هذا أيضا لا يحدث دون ألم، لأن المرء لا يستطيع أن يتذكر الجميل دون أن يحس بالجرح الذي أحدثه فقدانه، والآن تريد أن تعرف فوق ذلك كيف ولماذا أحتمل البقاء هنا. كنت تستطيع أن تسأل مباشرة عما إذا لم يكن معقولا للواحد منا أن يخطط للقضاء على نفسه. إن المرء يفكر بلا ريب في هذا وهو هش هشاشة كافية. ينقصه من الحنق على الحياة بقدر ما ينقصه من الميل أن يكف عن الاستمرار. وصدقني، الانسياب في اللاشيء هو ليس صورة مخيفة لي، مع ذلك أتردد. هل تعرف كلايست؟ إنه قريب إلي، وموضوعه الوحيد هو النظام الهش للعالم، ولكن في الأخير، وقبل أن ينتحر أصبح هذا الأنسان المنطق ي غير منطقي وكتب في رسالته الوداعية: *الحقيقة هي أنني لا أجد خلاصا على الأرض* . هذا يعني بالطبع: ليس العالم هو السبب،

السبب يكمن فيّ وفي فقر دمي حين أشعر أني مرهق. — ولكن هو ذاك، الرسائل الوداعية هي مجاملة بشكل كبير، إنها تنسب الذنب إلى صاحبها وتبرّئ العالم. أما كان ينبغي أن يكون التصريح الأخير أكثر خشونة جدا؟ كنت سأجد الأمر مقبولا على أية حال لو أن كلايست كتب: *الحقيقة هي أن الأوغاد وحدهم يشعرون بأنهم في وطنهم على هذه الأرض*. ولكن لكان هذا أولا مدحا للذات وثانيا إساءة للذين

يعيشون راضين، والذين ينبغي أن يتذكروه بود، أليس كذلك. أما ما يتعلق بي فإني أتردد كما قلت، وحتى أكون قد بلغت المرحلة التي أصبح فيها مستعدا لمحو نفسي، كما يطوف بذهني، وذلك بهدوء وبشكل عرضي تقريبا، كما ينتزع المرء عشبة على حافة الطريق — حتى تكون الطبيعة قد تولت بكل حال من الأحوال ما هو ضروري فيما أظن. ثمة شيء آخر يضاف إلى هذا. مهما كانت النهاية مغرية فإنه أمر يخلو من الشعور بالمسؤولية أن أترك زوجتي الحبيبة وحدها، أتركها للرعب دون حماية.

تمخط لوس مجددا، قلت: عليكم أنتم الآن مساعدتي: ألم تمت زوجتكم؟ – صمت ونظر إلي بعينين بدتا محمومتين. — أجل ماتت، قال ثم: ولكن كأنها لم تدفن بالفعل، وإذا كنت أتحدث عن تركها وحيدة فإنني أعني هذا بمعناي الذي لا يكاد يكون مفهوما، أردت أن أقول، من يحبها حين لا أعود موجودا، من يعود يتذكرها، من يكرم ويحمي ذكراها في زمن لا ذاكرة له؟ هل تفهم الآن؟ حين أعيش فقط فإنها تحظى بالرعاية. — إنه يريد أن يحميها أبعد من القبر، فكرت وقلت: نعم، أفهم، فقط أجد الأمر غريبا أن تعتبر حياتك بشكل ما خدمة لإنسان فقدته. يبدو لي أن مجرد قبول الفقدان هو بالنسبة لكم عدم إخلاص. لا بد أن ذلك يشلكم، هذا يعني السكون،

لكم الحق في حياتكم الخاصة بكل ما تنطوي عليه. — لم يصغ لوس إلي، جلس مديرا رأسه، نظرته مصوبة نحو المرتفعات الداكنة في الطرف الآخر من الوادي. توت شوكي طازج! قال بصوت عال عبر الليل، ثم صمت ثانية. هل توجد مسرات أرضية أخرى له؟ سألت ما إذا كان يرغب في توت شوكي وهل أطلب شيئا منه إذا كان متوفرا. — هناك في الجهة الأخرى، هناك فوق، جميع النوافذ مضاءة الآن تقريبا، في قاعة الطعام في فندق النقاهة تناولت الوجبة الأخيرة قبل الإعدام، رأت زوجتي في قائمة الطعام أن ثمة توتا شوكيا كحلوى بعد الطعام، ولأننا كنا متأخرين قليلا كانت خائفة جدا أن التوت الشوكي يمكن أن ينفد قبل أن نكون قد انتهينا من الوجبة الرئيسة. ورغم أنني أحسست أن هذا سيكون نكدا عليها وأنها توقعت مني أن أردأه عنها، اعتبرت المشكلة غير قابلة للحل. هنا أظهرت لي كم كنت عديم الفائدة. قالت للنادل أنها تريد أن يقدم لها التوت الشوكي في الحال، كمُقبّل، إذا شئنا. كانت عملية إلى هذا الحد، كان بودها أن تعيش وتأكل التوت الشوكي. — ولماذا الوجبة الأخيرة قبل الإعدام؟ سألت. — لأنها كانت الأخيرة، أنت لا تصدق كم أكرهها أحيانا لأنها انطفأت بالنسبة لي، بعد زواج إثنتي عشرة سنة، سنوات حب بشكل عام، تلاشت، تسللت خلسة، جعلتني خلفا على هذا

الكوكب الوحشي، وقد كانت في أفضل طريق للشفاء، كان الورم قد استؤصل، لم يحصل لديها انتشار للمرض، وتحت ربطة الرأس نما الشعر الأشقر الذي حلق من أجل العملية الجراحية، بسرعة كبيرة. — ماذا حدث؟ سألت مترددا. — لا أستطيع أن أتحدث عن ذلك في هذه اللحظة. — قلت بعد توقف، كما لوكان ذلك يمكن أن يهمه، أن الصديقة التي تناولت طعامي معها هنا كانت تنزل في كاديماريو أيضا. — لا أستطيع أن أتحدث عن ذلك،

كرر لوس، لقد تكلمت في كل الأحوال كثيرا، يعلم الله لماذا أعذب إنسانا غريبا بأشيائي الداخلية، هل نطلب نصفا أخيرا؟ - إنك لا تعذبني، ولكن فقط كيف سأصعد المنعطفات إلى أغرا لو تابعت الشرب الآن؟ - على الأقدام، هذا ينعشك ويهوي الرأس، وغدا تجلس نضرا خلف المنضدة وتكتب — حول أي شيء - حول أي شيء، لقد نسيت.

إنه ليس مهما أيضا، قلت، وقلت إن ذلك ليس لأني أخذت عليه سرحانه الموقت، وإنما لأنني لم أعد فجأة أعطي أهمية لما كنت أنوي عمله. ولأن لوس أصر على جواب أوضحت ثانية أن الأمر يتعلق بمسائل قانون الطلاق أو تحسين وإعادة صياغة القوانين التي تتعلق بهذا الموضوع في المقاطعات المنفردة وذلك في فترة الإصلاح الكنسي في

سويسرا حتى القرن العشرين. ربما كان يعرف أن القانون الموحد المطبق في جميع أنحاء الدولة الاتحادية حديث نسبيا، إنه إذا ما ألتزمنا الدقة نافذ منذ الأول من يناير 1908. حتى ذلك التاريخ كان لأغلب المقاطعات قوانينها الخاصة بها، وموادها المتعلقة بالموضوع هي موضوع عملي. — يا لها من صدفة، قال لوس، هذا هو أيضا عيد ميلاد أبي، ولكن هل تعتقد أنك ستنجز العمل خلال عيد العنصرة؟ – لا أستطيع أن أقسم بذلك ولكن أولا شعرت بسهولة الكتابة ليس بسبب عملي ككاتب في المحكمة لمدة سنتين في الآخر، ثانيا لدي لحسن الحظ ذاكرة ممتازة، وثالثا أن المادة كاملة موجودة معا. — لقد جئت بنصف مكتبة معك إلى تيسين؟ سأل لوس. فيم تفكر، قرص مرن واحد، قلت مبتسما. — هكذا، بالطبع، قال، معذرة، إنني أفكر أحيانا بمصطلحات قديمة وفجة، قبل كل شيء، زادت ثانية قبل وقت قصير، منذ أن صرت أعيش حياة مزدوجة مع ويندوز 2000، – صمت شاعرا بالقلق. ملأ لوس القدحين.

قال إنه يحتاج إلى خبرتي ونصيحتي. — بمَ يتعلق الأمر، سألت. يتعلق الأمر بالسؤال كيف يتخلص من ويندوز 2000 ثانية ويستطيع أن يعمل بـــ ويندوز 98 . لقد ظهر له أنه بعد تثبيت ويندوز 2000 يستطيع أن يستخدم الكرة الدوارة كفأر PS2

بزرين فقط. ويضاف إلى هذا وضع بائس هو أن ماسح الصفحات لم يعد يمسح وشريط الحفظ لا يريد أن يحفظ. كذلك الويزارد ميكر يرفض العمل. باختصار الترتيب الوضعي بأكمله الذي كان يعمل تحت ويندوز 98 بدون أي مشكلة، أصبح معطلا تقريبا. — حدقت في لوس. رأيته طيلة لحظات بسبب الظل مضاعفا، بشارب عملاق، بدا كما لو كان ثمة طائران أسودان يجلسان بأجنحة مفتوحة على كل من فميه. قلت أخيرا إن علي أن أستسلم وأن لا فكرة لدي. — لا بأس، قال لوس، أعرف الحل. — وإذن فقد أردت أن تختبرني أو تفضحني، قلت. لا والله يا سيد كلارين، أردت فقط أن أتفوق قليلا، فقط أن أحصل على الإعجاب ولكن قبل كل شيء أن أعلن سريعا أن المرء لا يجب أن يكون أبله رقميا، ليس شبحا من الأمس، ليرغب أحيانا أن يرسل ألألكترنة الكلية والمعلوماتية إلى الشيطان. هل تعرف ما أفكر فيه عندئذ، حين أستلقي على أريكتي؟ العالم بعد انقطاع التيار الكهربائي على الكرة الأرضية! وجميع المولدات منتهية، البطاريات فارغة، البطاريات المدّخِرة قد سالت — الهمسهسات الكونية قد صمتت. سكون وشاشات بلون الرماد. ناس بؤساء، منفصلون عن الأجهزة التي كانوا قد التحموا بها، مترعون من عالم الظل المربع ومعشية أبصارهم من ألق الآخرين. هل تسمعني يا ترى؟

كنت قد غفوت بالفعل تقريبا بينما بدا لوس يزداد يقظة، وسمعت صوته كما لو كان قادما من بعيد. أجل، نعم، قلت وحبست تثاؤبا، أردت أن تخدعني بأنك لست رجعيا، ثم رسمت سيناريو يدحض أقوالك. — هذا صحيح، قال لوس، هذا مأزق حالمي الأريكة العصريين، إذا انطلقوا مما هو قائم دون أن يمسوه، بدأوا من قاعدة الوضع الراهن ومضوا بخيالهم إلى الأمام باتجاه المستقبل ليظهروا هناك ما هو أفضل، ثم أخفقوا. ففي المستقبل سيصبح ما هو اليوم واقعي والذي يتوجب عليهم المشاركة في الحلم به أكثر واقعية بثلاثة أضعاف. لا يعود المرء قادرا على إقامة قصر من الهواء تحته. أحلام المستقبل، بكلمة أخرى، يمكن أن تكون كوابيس وحسب، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين تقشعر أبدانهم الآن من الحاضر، وإذا ما حلم المرء بهذا بأن يأمر وهو على أريكته أن يحل طوفان جزئي على البشرية فإنه يستقر بطبيعة الحال في الماضي. يكون على المرء أن يبلع قمة الرجعية. من يتمنى أن يكون كل شيء أبطأ، أكثر هدوءا، أقل سطوعا، فليس لديه خيار آخر سوى أن يعود بخياله إلى الماضي، فكما ذكرت، لأن ما هو مقبل سيكون عنيفا حقا بحيث لا يعود يجرؤ على حلم صغير، هل تفهم؟

نعم، أفهم، قلت، وهو لا يعني أنني أتفهم هجومكم على توليد الطاقة، والذي سيصيبكم أنتم أيضا إصابة بالغة بالمناسبة: لا يعود ثمة موزارت ولا هايدن في ساعات ليلِكم! – يا إلهي، قال لوس، لم أفكر في هذا، لكني أستطيع أن أتعزى عنه، سأعزف لنفسي عند الضرورة شيئا بنفسي. – النبيذ، تابعتُ الكلام، سيصبح بضاعة نادرة والسيجاير أيضا، على الأقل بسبب المواصلات المنهارة. – إنكم تعذبونني، قال لوس، إنكم تُبغّضون الطوفان إلي، هذا ليس لطيفا منكم. – إنني أحذركم فقط من تبعاته بالنسبة إليكم. – حسنا، قال، علينا الآن إذن أن نفكر بحدة، إلى أين يمكن أن يتمنى المرء أن يذهب. في الأمام لا يوجد مكان لحشر الأحلام،

في الخلف رومانسية ذات نواقص وفي الوسط ذلك الترق المكتنز الذي يولد رغبتنا بالهرب. إلى أين إذن؟ ما العمل؟ - أعرف شيئا، قلت، علينا أن ننصرف الآن.

كدت أفقد توازني حين كنا آخر من نهض وهو ما خفف عن العاملين. رأى لوس ذلك وكان نفسه يترنح قليلا وإن كان أكثر استقلالا مني، وعرض علي أن يرافقني في الصعود إلى أغرا.، قلت إنني أثّمن عرضه، لكنه يستطيع ببساطة أن يذهب للنوم. لا يتعلق الأمر بعرض، قال، وإنما بحاجة. إنني لا أزال بحالة لائقة، سأذهب بالسيارة،

قلت، الطريق إلى الأمام فقط، إلى الخلف سيكون الأمر أصعب. — هيا، قال لوس، لا تجعل من ذلك مسرحية. — أخرجتُ المصباح اليدوي من درج القفازات في سياراتي، وقف لوس إلى جانبي وقال: أوه، سيارة كابريو. — سيارة مستعملة، قلتُ، وألقيت بالمصباح اليدوي في السيارة ثانية لأنه لم يكن يعمل. لدينا الهلال، قال وتأبط ذراعي وسحبني. بعد خطوات قليلة ترك يدي فجأة كما لو أنه ذعر من الاقتراب المفاجئ. مضينا دون كلام خلال القرية، توقف عند الكشك الصغير قرب البريد وقال، هنا تباع أيضا البطاقات البريدية الفنية التي تحمل رسوما مائية لهيسه، كانت زوجته تحبها جدا. — وأنت؟ سألته، ما رأيك فيها؟ – قال إن ما أحبته زوجته ذات يوم على نحو ما لا يمس. — سألت ونحن نتابع السير عما إذا كان هذا نافذا أيضا عندما كانت زوجته على قيد الحياة. — حين لم يكن بإمكانه مشاركتها حبها للأشياء فقد حاول دائما أن يحترم ما كانت تحبه ويحدس بما يستحق الحب فيه. — وإذا ما أتت ذات يوم بدمية للحديقة؟ – قال لوس، يعرف المرء عادة قبل الزواج ما إذا كانت المرأة المختارة ستأتي بدمية للحديقة أم لا.

بالمناسبة لم تحب زوجتي الرسوم المائية لهيسه وحدها ولكن أيضا أدبه، لأنها كانت تبحث دائما فيما يبدو عن شيء ما، وللباحثين فإن

هيسه عنوان جيد، يستطيع المرء أن يفتح كتبه حيثما أراد، يصادف المرء دائما حكمة أو قاعدة للحياة، ما يجده، لوس، يدعو لليأس، بينما كانت زوجته قد خصصت مجموعة لمثل هذه الحكم في دفتر صغير ذي مربعات. ولكنه لا يريد أن يسخر فقد احترم دائما، كما قال، ما تحبه، وحين أعربت عن رغبتها، قبل حوالي سنتين، في أن تسافر معه في نهاية الأسبوع إلى مونتاغنولا لتزور متحف هيسه في التوريه كاموزي، وافق في الحال. إلا أن الآثار المعروضة مثل نظارات هيسه أو برقية أديناور بمناسبة بلوغ الكاتب الخامسة والسبعين لم تؤثر فيه، وخاصة مظلة هيسه. ولكن بدا أن هذه بالذات أثارت إعجابها.

توقف لوس وتنفس بصعوبة. منذ أن أصبحت وحيدا عدت إلى التدخين، لهذا ثمن، قال. كنت قد توقفت عن التدخين طوال خمس سنوات، رغم أن زوجتي، وكانت نفسها غير مدخنة، لم تلح علي بترك التدخين أبدا. سيدة سمينة هي التي حررتني من إدماني. – شافية؟ – كلا ليست شافية، وإنما إمرأة جلست قبالتي في مقهى وتناولت حلويات مختلفة، بعجالة وبنهم يخلو من الحياء تقريبا. شعرت بالغثيان. كيف يمكن أن يكون المرء رخوا وضعيف الإرادة إلى هذا الحد، سألت نفسي، أشعلت سيجارة ولاحظت أنني دخنتها بنهم. كانت

تلك هي الأخيرة، و لم تحدث لي انتكاسة في السنوات الخمس التالية، هكذا، من جهتي نستطيع أن نتابع السير.

شيء آخر يهمني، قلت، موضوع مظلة هيسه. ما الذي أعجب زوجتك فيها؟ – سألتُ نفسي أنا أيضا هذا السؤال، قال لوس، فضلا عن هذا فقد كانت هذه المظلة بالفعل مظلة رجالية سوداء بسيطة مثل مظلته هو وملايين أخرى.

و لم يسأل نفسه فقط وإنما سأل زوجته أيضا في غرفة الفندق فيما بعد – لقد باتوا في بيليفو — . هو أيضا، زوجها، يملك مظلة، قال لها، ولكن يبدو أن مظلته بالنسبة لها ضمن الأشياء غير المهمة، بينما وقفت أمام مظلة هيسه كما لو أنها تقف أمام شيء مقدس. وما إذا كانت تريد أن تشرح له ما الذي فتنها في هذه المظلة. إبتسمت له وذكرته بمتحف فرويد في فيينا الذي زاراه ذات مرة معا، والذي كانت قد عرضت فيه سيجارة كان فرويد قد بدأ بتدخينها، والتي نظر إليها هو، لوس، بخلافها، بانتباه تقريبا. عليه أن يعطي الحق لزوجته، فقد أثرت فيه هذه السيجارة تأثيرا كبيرا بالفعل. وبهذا كان الموضوع قد انتهى.

في السرير قرأت له زوجته بعد ذلك قصيدة أخرى مطبوعة على ورقة من حجم 4 أ وجدتها في متحف هيسه وأثرت فيها تأثيرا كبيرا.

قرأت له سطرين منها ثلاث مرات، لذلك فإنه حفظها عن ظهر قلب:

يجب أن يكون القلب في كل نداء للحياة
مستعدا للوداع والبدء من جديد.
حين سألتُهُ عما إذا لم يكن هذا جميلا، نخر بفظاظة وهو نعسان، فأطفأتِ الضوء بعد ذلك.
فاجأني مفاجأة طيبة كون لوس لا يستطيع فقط أن يصوّب ويجادل وإنما فجأة أن يروي أيضا. ولأنه تحدث من قبل قليلا عن حياته الشخصية، انتهزت الفرصة الآن وسألته عما إذا كان يحب المدرسة، ما إذا كان يحب التدريس. — إنه يحب الوقوف في غرفة الدرس، قال، ولكن في الخارج مباشرة يسود الجهل، فخلال السنوات الماضية وقعت المدرسة في كل مكان تقريبا في مخالب ذوي المناصب، أميين تربويين، ولكن الآن،
في هذه المسيرة على الأقدام في الليل الهادىء، من غير المناسب أن يقول المرء أية كلمة عن المأساة، المدرسة.
لم نعد نتكلم، حتى خلّفنا المرتفع كثير المنعطفات وراءنا وبلغنا هضبة كولينا دورو. كانت النجوم قد اختفت وهبت الريح. ماذا تعتقد؟ سأل لوس. — آخ، قلت، حاولت توا أن أتذكر متى بالضبط انفصلت عن صديقتي التي حدثتك عنها. — نعم، قال، لا بد أنه ليس سهلا بالنسبة لك أن تحتفظ بنظرة عامة. هل الأمر مهم؟ - أبدا، إنه خطر

لي فجأة فقط أن هذه الصديقة، التي كانت نزيلة في المصح في كاديماريو يمكن أن تكون قد التقت مع زوجتك، إذا ما كانتا قد أقامتا هناك في نفس الفترة. — كانت زوجتي هناك خمسة أيام فقط، حتى الحادي عشر من يونيو من العام الماضي، فيما إذا كان هذا يساعدك. — هذا يعني حتى بعد غد قبل عام؟ – نعم، قال بصوت واطئ، في يوم أحد عيد العنصرة تمر ذكرى الفاجعة. — لم أجرؤ على أن أسأل ثانية عن الظروف التي ماتت فيها، وقلت في نفسي الآن، لو كانت حادثة الوفاة هذه قد حدثت خلال الفترة التي كانت فيها فاليري التي أقامت في كاديماريو ثلاثة أسابيع، هناك لكنتُ قد سمعت بها من خلالها، وخاصة إن كانت فاليري تعرف زوجة لوس.

قبل بيغوغنو بمسافة قصيرة سقطت القطرات الأولى للمطر، أضاء البرق القرية النائمة، صمتت صراصر الحقل وبعد الرعد نصحتُ لوس أن يعود فورا. ليس جيدا أن يقطع المرء ما بدأه، قال، فضلا عن هذا فقد مرت بين البرق والرعد ست ثوان. إذا قسم المرء هذا على ثلاثة، عرف كم تبعد العاصفة — كيلومتران كاملان في حالتنا. وهكذا فإنه لن يعود، لكنه سيكون مسرورا إذا سمحت له أن ينسحب لقضاء حاجة.

هذا ما أحتاجه أنا أيضا منذ وقت طويل. وقفنا على حافة الطريق محافظين على مسافة ما يقرب من مترين بيننا. قصصت عليه أن رجلا راغبا بالطلاق جاءني منذ وقت قصير روضته زوجته على ألا يبول في المرحاض إلا جالسا، من أجل تجنب الرشاش، والآن بعد طاعة أربع سنوات يشعر موكلي على حين غرة أن الانقياد سبب للطلاق. — لم ينجر لوس إلى هذا، كان يدندن. شعرت للمرة الأولى برغبة في مخاطبته بالصيغة غير الرسمية. بم تدندنون؟ سألت. — *آه ما أجمل عالمك*، قال، أغنية لشوبرت، واحدة من أغاني زوجتي المفضلة. — هذا ما افترضته تقريبا، قلت، أنتم ترون العالم بشكل مغاير. - هذا هو الحال، لقد أكمل أحدنا الآخر بانسجام. — ألم تكدِّر هذا الانسجام خصومة أبدا، سألتُه وسحبت سحاب سروالي إلى الأعلى. — نادرا، قال، حتى أنني لم أنس واحدة منها. وبالأخص الأخيرة حول زجاجات الخيار. — حول زجاجات الخيار؟ - حول زجاجات خيار مخلل فارغة، قال لوس، الذي كان بدوره قد انتهى الآن. القضية يمكن أن تهمك، أعني قانونيا. في القسم الخاص بالرزم، كان يسمى في الماضي صندوق الحليب، في قسم الرزم هذا من صندوق بريدنا وجدنا ذات يوم زجاجة خيار فارغة، بعد ذلك بيومين وجدنا زجاجة ثانية. في البداية شعرت أن الزجاجات هي نوع من التحية المازحة، ولكن

بعد شهر، حين كنت قد تخلصت من أكثر من دزينة منها شعرت بالاستياء. في نفس الوقت لاحظت أني أشعر بالخيبة تقريبا حين تتخلف الزجاجة عدة أيام. بعد شهرين آخرين بقيت زوجتي تضحك ولا تعير بالا للمشكلة، بينما كان علي أن أحتمل اقتحام زجاجات الخيار هذه أحلامي، وقفت أحيانا ليلا في المطبخ المظلم، حيث أستطيع من هناك أن أراقب مكان الجريمة، الفاعل وحده لم يظهر أبدا. يكفي، قلت بعد الزجاجة الستين،

سأذهب إلى الشرطة قبل أن أصاب بالجنون. هل تعرف ما أنت؟ سألت زوجتي، وكشفت عيناها استياء طيلة لحظات، إن لم يكن احتقارا. أنت متعنت، قالت. وهكذا لم أبلغ الشرطة وألزَمَت زوجتي نفسها بأن تتولى التخلص من الزجاجات، والآن أرجوكم يا سيد كلارين أن تقيموا القضية من وجهة نظر قانونية.

ليس الأمر سهلا، قلت. هل كان على الفاعل أن يدخل أرضك أم أن صندوق البريد يقع على حافة الشارع؟ - الأخير، قال لوس. — وفق قانون العقوبات لا تكاد تهمة التعدي على حرمة المنازل تؤخذ بنظر الاعتبار، على العكس يمكن أن يستند المرء إلى قانون حماية البيئة الذي يمنع التخلص من النفايات خارج المستودعات المجازة. لديك الحق في التعويض عن الأضرار بالنسبة للعمل الذي نجم عن ذلك فقط وفق

قانون الإلتزام، ولكن كما قلت، الحالة يصعب تصنيفها، حسنا فعلت إذ لم تعر أهمية للقصة. – شكرا، قال لوس، إنكم محنكون، هل لديكم بطاقة شخصية؟ بالمناسبة إنتهت الأشباح بعد أن تولت زوجتي الأمر بوقت قصير. وضعت ذات مساء زجاجة فيها خيار في خزانة الرزم، ولا بد أن هذا أربك الجاني إرباكا عميقا حتى أنه لم يأتِ ثانية. – هل أخذ الخيار؟ – كلا، قال لوس، يبدو أنه اعتقد أنه مسموم. – كانت لديك زوجة ذكية. – نعم كانت ذكية في شؤون الحياة، على العكس مني، كانت متفوقة علي في بعض الأشياء رغم أنها كانت تصغرني باثنتي عشرة سنة، ولكنها كانت قبل كل شيء رقيقة، لذلك، كما قلت، نادرا ما ارتفعت أصواتنا و لم تقل كلمة سيئة مثل كلمة متعنت سوى مرة واحدة.

لهث لوس فخففت السرعة. لا يبدو أن العاصفة اقتربت، وحين اعتقدت أننا سنصل أغرا جافين نوعا ما، بدأ المطر الموضعي يهطل بعنف.

إبتللنا في الحال، حتى أنه لم يعد ثمة معنى أن نقف في مكان ما. لم نعد نتحدث. عند الباب فقط أشعل لوس ولاعته لأستطيع أن أجد ثقب المفتاح – سألته إن كانت لا تزال لديه رغبة في شراب للنوم، أمام نار الموقد ربما. – إنكم تسألون بدافع المجاملة، قال، لديكم في الغد عمل

كثير. – أنا يقظ في هذه اللحظة، قلت صادقا. – دخلنا، نظر لوس حوله خجلا. لا أستطيع أن أعرض عليكم ملابس جافة، قلت، إنها لا تتسع لكم، أرجوكم، أجلسوا، سأوقد النار حالا. – أعذروني، قال، أفضّل أن أذهب، ألاحظ أن الوقت قد حان. – مؤسف، قلت وكنت أشعر حقا بالخيبة. – يمكننا أن نلتقي غدا ثانية إذا أردتم، ربما في المساء. – قلت طبقا للحقيقة ثانية، إن ذلك يسرني وإنني كنت أنوي في كل الأحوال أن أعود بالسيارة في المساء فقط. شربنا واقفين قدح كونياك وشكرت لوس على مرافقته لي.

إرتفع صوت صراصر الحقل في الخارج ثانية، كان المطر قد توقف، غيمة منشقة كشفت القمر برهة، لتصلوا بالسلامة، قلت. نوم هانئ، قال، واختفى شبحه في الظلام، ظِلٌّ مترنح شبيه بالدب.

رغم أن الساعة كانت تقترب من الواحدة أشعلت نارا في الموقد، خلعت ثيابي وجلست بالبرنس أمامها، لأفكر في ما شهدته، لأوضح صورتي المضببة عن لوس. بدلا من ذلك وقعت في تفكير غريب علي حول نفسي، شعرت فجأة أنني قليل الإحساس، خامل، سطحي، شعرت بعدم الارتياح من نفسي. بين حين وآخر فرقعت قطعة حطب وأطلقت بضع شرارات. شربت قدحا آخر من الكونياك.

في وقت ما نفضت نفسي، دفعت الجمر إلى الخلف وذهبت للنوم. نمت نوما رديئا كما لا يحدث إلا نادرا.

**الفصل الثاني**

وهكذا لم يكن نوما هانئا، رغم أنني أنهض مبكرا عادة، بقيت مستلقيا إثنتي عشرة ساعة و لم أغادر سريري إلا حوالي الساعة الثانية ظهرا، مخلع الروح والأعضاء. وكنت في ذلك قد عزمت أن أبدأ عملي في التاسعة؛ فأضيف إلى عدم الارتياح والصداع احتقار الذات الذي يصيب الشخص الذي اعتاد النظام، إذا ترك ما كان قد عزم على فعله بسبب ضعف الإرادة. كان الجو في المنزل باردا حقا، وبينما كنت أوقد النار في الموقد الحديدي في غرفة العمل، تذكرت الريبة التي انتابتني أول مرة وأنا نصف نائم، في أن زوجة لوس يمكن أن تكون قد انتحرت. بدا لي هذا الآن في اليقظة مؤكدا أكثر، فهو يفسّر بشكل معقول خجل لوس من الحديث عن ظروف موتها. أعددت لنفسي قهوة مركزة. ولكن هل ينتحر شخص أجريت له عملية ناجحة في الظاهر وأخرج من المستشفى ليرتاح؟ ثم ألم يقل لوس أن زوجته كانت تحب الحياة؟ خرجتُ واقفا أمام باب البيت، كان الطقس غائما، لم يبد كيوم عيد عنصرة مفرح. لا بد أن الزيجة كانت سعيدة، حظ سعيد حسب قول لوس. — ربما انسداد أوعية أعقب العملية؟

ولأنه توجد أيضا سوداوية يصاب بها المرء بعد العملية، من المحتمل أن يكون انتحارا بالفعل؟ مسحت نظارتي واقفا وكنت خائفا من أنها يمكن أن تسقط من يدي. بعد قهوة ثانية ذهبت إلى غرفة العمل وجلست أمام الكومبيوتر المحمول، حيث لاحظت بعد عشر دقائق أنني لم أكن قادرا على العمل وأن ضبابا كان يفصلني عن الشاشة ومفاتيح الكتابة.

عدت إلى المطبخ، جلست أمام المدفأة الباردة، رأيت عنكبوتا كبيرا يركض فوق ألواح الخشب، قفزتُ، قتلته بالحذاء البيتي. عطب داخلي. لدى لوس عطب داخلي، فكرت دون أن أدري من أين جاءت الكلمة إليّ طائرة.

كتبتها في دفتر ملاحظات. سجلت كلمات، نتفا من جمل وجملا حول لوس ونقلا عنه، بلبلة، دون ترابط. تجمدت من البرد فذهبت إلى السقيفة المجاورة لأفلق خشبا. فكرت أنني ربما كنت طبيعيا أكثر مما ينبغي. مهما يكن أفضل من نصف مجنون، فكرت. طقوسه للموت! لن أستغرب أن تكون جرةُ رمادِها فوق المنضدة الجانبية عند سريره. أحيانا يشعرني بالنفور، أحيانا أعتقد أنني أحس بشيء يمكن أن يكون قريبا مما يشعر به ابن تجاه أبيه الضعيف. ضربت الفأس في قاعدة التقطيع ومضيت ثانية إلى غرفة العمل وقمت بمحاولة ثانية. أن

أكتب بضع ملاحظات تمهيدية ونوايا حول الموضوع دون مشقة: هذا ما كنت أستطيع أن أفعله بوضع مصدوع أيضا. والآن لم أنجح رغم أني بفضل القهوة وأقراص ألكا زيلتسر قد عدت إلى وضعي الطبيعي.

كان من المنطقي بالطبع أن أعتذر عن لقاء لوس لأكرس ساعات المساء للعمل وأتابعه في يوم أحد العنصرة برأس غير مثقل. لماذا لم أفعل؟ بالتأكيد ليس مجاملة أو مراعاة. لم يكن لوس بحاجة إلي. لم يكن كما أعتقد شخصا يشبه البحار الذي يريد أن يتخلص من قصصه، ولم تبدُ حتى شكواه من العالم بحاجة إلى صدى، ناهيك عن الإعتراف. بل يمكن حتى أن أكون قد أثقلت عليه وأن يكون قد ندم الآن على أنه اقترح لقاءً ثانيا لشعوره بالميل إلي تحت تأثير الكحول، وهذا في المساء الذي سبق ذكرى موت زوجته، مساء يريد كما أتصور أن يكرسه للذكرى دون إزعاج. كان كل شيء يرجح الرفض – باستثناء ذلك الدافع الذي أثبت كما يبدو أنه حاسم. حتى لو لم يكن الأمر واضحا لي فعلا وقت اتخاذ القرار. جذبني لوس. بدقة أكبر وبشبهة أقل: بحثت رغما عني عن دائرة جاذبيته وأسمي هذه الظاهرة مغناطيسية، نعم، بل سحرية. لا شيء أكثر من ذلك.

عدت إلى المطبخ ونظفت الفرن الذي نسي سلفي وشريكي في الملك أن ينظفه في عيد الفصح. قلبت مجلة نسائية تذكرت أن فاليري جاءت

بها. كان السؤال عما إذا كانت النساء يخترن رجالهن وفق معايير الجمال قد حسم حسب دراسات جديدة. قرأت أن النموذج الجمالي للنساء يتغير حسب مرحلة الدورة، وإنهن يفضلن في الأيام القابلة للإخصاب الرجال الرجوليين بعضلات ومناكب عريضة، وفي بقية الوقت النمط الرخو أكثر من غيره. — فكرت أن الوقت المتبقي هو من حيث المدة الوقت الرئيس، وقمت مع ذلك بعدة تمارين لشد العضلات. استشهد مقال آخر بدراسة تقول أن الرجال والنساء على السواء يعتبرون الناس ذوي العيون الزرقاء أكثر جاذبية وذكاء من ذوي العيون البنية أو الخضراء — نتيجة بحث كانت لصالحي. حين وضعت المجلة جانبا وقع نظري على تاريخ صدورها، الحادي والعشرين من يونيو من السنة الماضية. إذن بعد هذا التاريخ بوقت قصير، أي بعد موت زوجة لوس بأسبوعين لا بد أن أكون قد أخذت فاليري من كاديماريو وجئت بها هنا إلى أبيرو، ثم أخذتها إلى بيليفو. ولأن هذا، وهو ما أعرفه بشكل مؤكد، حدث حوالي الاسبوع الثالث والأخير من إقامتها، ولأن زوجة لوس ماتت في الحادي عشر من يونيو بعد خمسة أيام من إقامتها، فإنني استطعت أن أستنتج أن الإمرأتين لا بد أن تكونا في أسبوعهما الأول في نفس الوقت في مصح كاديماريو. رغم أني كنت واثقا من أنهما لا يمكن أن تكونا قد

تعرفتا على بعضهما — فالمصح ضخم أيضا –، وإلا لكانت فاليري كما ذكرت سابقا قد تحدثت عن حالة الوفاة هذه، وضعني اكتشافي في حالة قلق صعب علي تفسيرها. بشكل غير منطقي بدا لي أن تكون زوجة لوس وفاليري ربما نظرت إحداهما إلى الأخرى برهة وابتسمت لها،

كشيء يربطني بلوس بصورة أوثق. هو نفسه أظهر بايجاز وفظاظة تقريبا أن تطابقات من هذا النوع لا تهمه، لذلك عزمت أن أدعه في سلام. لم يكن مؤكدا على كل حال إن كنا سنتبادل الحديث ثانية. يمكن للمرء أن يلتقي ثانية، قال لوس حرفيا — تذكرت هذا بالضبط تماما مثل بعض الأشياء الأخرى، فلم تصدق بالنسبة لي أبدا، أبدا تقريبا، الكلمة القديمة عن النبيذ الذي يقتل الذاكرة –، وهذا اللقاء يمكن أن يعني مصافحة، وداعا قصيرا، ولكن أيضا وجبة طعام ثانية معا. ما الذي كان أحب إلي؟ لم أعرف حقا، ثم ملت إلى الأخيرة. ربما مثل قارئ يريد أن يترك كت ابا فقيرا بالأحداث لكنه في الآخر يتابع القراءة. — سواء على أمل أم حدس بأن الشيء الحاسم سيأتي بعد ذلك، أو لأن الشيء المقطوع وغير المنجز يُشعره بعدم الارتياح. غير أن المقارنة ضعيفة باعتبار أنني لم أستطع أو لم أرد أن أقرر ما إذا

استأنفنا حديثنا: فوضع لوس وتقدمه عليّ في السن أعطياه الحق في إبداء الرغبة دون سؤال.

أما ما يتعلق بالمشاعر غير المريحة فإنني أشعر بها الآن رغم أن الكتاب قد قرئ، وددت لو كانت غير مريحة وحسب.

قضيت بقية فترة بعد الظهر دون أن أفعل شيئا. جلست وتجولت في المترل، رفعت شعيرة، نفختُ فتاتا من على المنضدة، انحنيت لألتقطها بعد جولة جديدة. أكره التعطل وهو يسبب لي الإرهاق . يا إلهي، دع المساء يأتي: لم يسمع أحد أبدا هذا الدعاء قبل الآن. لكني سمعته الآن وقد استجيب له كالمعتاد، حتى أنني أستطعت أن أخرج حوالي الساعة السادسة، أحمل مظلة وكنت مهموما بشكل ما.

كانت الشرفة فارغة، كان ثمة نادل مشغول بتجفيف الموائد والكراسي المبتلة. حين لاحظ أني كنت أنظر إليه، رفع نظره أكثر من مرة إلى السماء الملبدة بالغيوم، متشككا كما لو كان يريد أن يظهر أنه يعي احتمال لا جدوى عمله. سألت عما إذا كان بإمكاني أن أحصل على مقبّلات. أومأ برأسه، فجلست إلى نفس المنضدة التي جلست إليها في المساء السابق، ولكن على الكرسي الذي جلس عليه لوس، وحين ذهب النادل ليحضر لي الكامباري رفعت نظري إلى

واجهة الفندق وتجمدت. كانت نافذة الغرفة التي وصفها لوس بأنها غرفته، مفتوحة، ورغم أنها لم تكن بندقية صيد تلك التي رأيتها موجهة صوبي، بل منظارا فإنني شعرت بعدم الارتياح إلى أبعد حد، بل شعرت بأني مهدد. ولكن قبل أن أستطيع أن أغضب من لوس، خرج إلى النافذة ولوح لي، مصالحا كما بدا لي، وبعد ذلك بقليل كان يقف أمامي محرَجا. — كان هذا بعيدا عن اللياقة، قال، أرجو المعذرة، كنت في سبيلي إلى أختراق الضباب، هنا رأيتك و لم أستطع شيئا آخر، غير أن أنظر إليك نظرة قصيرة، اعذرني، لا أستخدم منظاري إلا في تقريب مصح كاديماريو، إنك شاحب جدا، كيف حالك؟ – لأعترف بصراحة، متوسط، قلت، وأنت؟ – إنني في مزاج لهو، الله وحده يعلم لماذا، قال وجلس في مواجهتي. بالفعل بدا مختلفا عما كان في المساء السابق، منشرح الصدر، خالي البال، وكان يشع بالانفتاح. — ستبقى طبعا للعشاء؟ سأل. بسرور، قلت، إذا لم ترد أن تبقى وحدك. — وإلا لما سألت، لا أكاد أدع مشاعر الواجب تقودني. كلما تقدمت في السن كلما أنتقيتها بدقة أكبر ولا أتبع إلا عددا قليلا منها، تلك التي تلتقي مع ميولي إلى حد ما. بالمناسبة، لقد حجزت مائدة، في الداخل، فالأمل ضعيف في مساء جاف. لماذا أنت بوضع متوسط فقط؟ – تحدثتُ عن ليليتي الشاقة، عن اضطجاعي وقتا طويلا،

واستيائي لذلك، عن اليوم الكسول الضائع. — لا توجد أيام ضائعة، قال لوس، وضعف الدافع يفهم كعصيان مدني، كقوة مضادة للعمل الكثير، ظاهرة صحية. كل ما يخدم الإبطاء، وحتى إفطارا يمتد وقتا أطول، يفيد الصحة الشعبية المهددة إلى حد لم يسبق له مثيل، لأن عددا أكبر وأكبر من الناس يشعرون بأنهم غير قادرين على التماش ي مع الميكانيكة المسرعة، أنهم يتخلفون عن الركب. وسواء وعوا هذا أم لا أو تستروا عليه بآخر مهارة ممكنة ووثبة نشطة أم لا: إنهم جميعا قد حُمّلوا فوق طاقتهم، حتى النهاية ودون استراحة، وهذا يسبب المرض. وعلى العكس من هذا الحيوانات. ليس ثمة حيوان على الأرض يعمل، ربما باستثناء النمل والنحل والخلد التي ليس الدافع في نشاطها ضرورة أخلاقية. البقية تتجول هنا وهناك قليلا بحثا عن الطعام، ما دام الأمر لا يتعلق بحيوانات داجنة مثل الكلاب والقطط. فالكلب المتوسط ينام على سبيل المثال أو يغفو عشرين ساعة في اليوم، وكذلك ترتاح القطط، كانت لزوجته وله واحدة، قطة سوداء بأقدام بيضاء، كانت زوجته تحب القطة، حاول هو أن يحبها، لكنه وجد بين حين وآخر مشقة في أن يقبل كسلها المفرط، كانت تتركهم يخدمونها ببساطة، وبعد أن تتلقى الخدمة تغطس مقرقرة في إغفاءة، بينما كان عليه أن

ينظر إلى الساعة وينهض ذاهبا إلى العمل، لكن هذه الحيوانات معافاة على الأقل على العكس من البشر ولديها شعر لماع.

أيها السيد لوس، قلت، لقد شلني خمار عادي تماما [1]، هذا الذي تمحضه أنت شرفا كبيرا حين تعتبره مثالا للعصيان المدني وتتخذ منه مناسبة للاستطراد حول عالم الحيوان والصحة الشعبية. — طلب لوس قدحا من النبيذ الأبيض، صمت طويلا ولم يجب إلا حين وضع القدح أمامه.

إنه يدرك نزوعه إلى الاستطراد قال، كثيرا ما نبهته زوجته الحبيبة إلى ذلك. فضلا عن هذا فإنه يتذكر بشكل ضبابي أنه قد تحدث أمس عن التحمل فوق الطاقة. وهكذا فهو يكرر نفسه. لكن الاستطراد والتكرار يعنيان بالنسبة للشخص المقابل إساءة، ولأنه لا يستطيع أن يعد بتركهما، يقضي عليه الأدب أن ينسحب الآن.

كان لوس جادا. نهض ومد يده لي. أمسكتها بقوة، مرتبكا، ثم قلت أخيرا، إنني فرحت بأن أقضي المساء معه. — حقا؟ سأل. — حقا، قلت وكذبت قليلا حين أضفتُ، ما يشعر أنه إساءة، لا يضايقني على الإطلاق. — جلس لوس وأفرغ قدحه. هادئا كما لو لم يحدث شيء، أمسك بالخيط ثانية. إنه لا يكاد يعرف أحدا لم يدمغ بالخوف من الفشل. تحدث الجميع تقريبا بفجاجة ووضوح، تغوطوا في سراويلهم

خوفا، وسقطوا في الصمت والخجل مثل مصابين حقيقيين بعجز الأمعاء، وهكذا بقيت مخاوف الإخفاق تحت الغطاء. ثم أن المرء، بصرف النظر عن المجال الذي يتحرك فيه، يصادف صعاليك سريين كثيرين يحتاجون الجزء الأكبر من طاقتهم لتزيين ندباتهم، لا أمل في انطلاق جماهيري، وتبعا لذلك أيضا لا ثورة يقوم بها المحملون فوق طاقتهم. وعلى العكس يلوح في الأفق انتشار التعاسة الروحية انتشارا وبائيا لم يسبق له مثيل، بل هو الآن حقيقة. وكلما اتسعت رقعة استخدام العلاجات الكيمياوية، وتنوعت لائحة العلاجات الأخرى أو الوعد بالشفاء: يبقى الجذر دون معالجة، يستمر البؤس بالتفشي. هل تحتملون اعتراضات؟ سألتُ لوس. — قد أكون لجوجا، أجاب، ومع ذلك أتعطش إلى اعتراض. — حسنا، قلت، لقد رويت لكم أنني كنت أنوي أن أكرس نفسي هذا اليوم لقضية الطلاق القانونية، لكني بدلا من أنهض مبكرا بقيت نائما،

وفي ساعات الظهيرة، مضعضعا كما كنت، لم أستطع شيئا. وهذا النقص في الدافع، الأصح ضعف الإرادة، ملأني استياء، بل احتقارا لنفسي. هكذا – كان هذا مناسبة لموضوعكم، كان هذا البعوضة التي جعلتم منها فيلا، ربما كان في فرضية المجتمع المحمل فوق طاقته جانب من الصحة وهي أيضا ليست جديدة، ولكن لا علاقة لها فقط بحالتي.

هذا من جهة، والآن إلى الفرضية نفسها: لقد أوضحتم أمس أنكم لستم متشائمين تاريخيا. أكثر من هذا، قلتم، تبقى كمية الشرور ثابتة تقريبا، فكل قديم يحل محله نوع جديد. أوافق على هذا، وأعترف أيضا أن الشعور بالتحمل فوق الطاقة يمكن أن يكون مصدرا للتعاسة، ولكنه ليس جديدا بأي حال من الأحوال. كان هناك دائما أناس يحمّلون فوق طاقتهم، كل زمن يخلق صعاليكه وكل مجتمع بؤسه الروحي ... — ولأن الحال كانت هكذا دائما، قاطعني لوس، على المرء أن يخرس، أليس كذلك؟ خاصة عندما لا يكون لدى المرء ما هو جديد تماما يسهم به في القضية. — كلا، مطلقا قلتُ، هل تسمح لي أن أكمل كلامي؟ معذرة، قال. — أريد أن أذكركم بزمن، تابعت الكلام، أعرفه أنا على العكس منكم من السماع فقط، وذلك بالفترة العطنة للخمسينات كما هو واضح والسنوات الأولى للستينات. كم كانت شبكة الأخلاق يومذاك محكمة، كم كان نظام القيم جامدا، وكم كانت عين الله لائمة. رقابة اجتماعية واضطهاد في كل مكان — وتربية، أرادت صافعة الأفضل وحسب: طرد الشعور بقيمة الذات الذي اعتبر وقاحة وقلة أدب، ترويض البشر لا ليكونوا مخفقين — فهم لا ينجزون شيئا —، ولكن ليكونوا كائنات *تخاف* من الإخفاق وتفعل كل شيء يطلب منها، أنا أسألكم كشاهد على ذلك الزمن: أليس

تقديري صحيحا؟ – كان يمكن أن يكون صادرا عني، أجاب لوس.
– كان مجتمع العنت التام، قلتُ،
ثم هبت ريح نقية، قطعت أربطة الوصاية، أصبحت الشعور أطول والتنانير أقصر، التنفس والسير والكلام أكثر حرية. خفف جَعلُ الأخلاق نسبية عن الفرد، مكن التصور القيمي المتساهل والموسع من ظهور أشكال حياة جديدة، باختصار، يحقق رفع القيود في مجال النظر إلى العالم حيزا من الحرية ومجالا للحركة كما لم يحدث من قبل، ومع ذلك فإنكم مع وجهة النظر، بأن الإنسان اليوم محمل فوق طاقته ومضطهد روحيا أكثر من أي وقت آخر- لأنه فقط لا يتحمل سرعة التغيرات.
أستطيع الآن أن أقول – قال لوس بعد صمت طويل، بينما كان فكاه يطحنان –، إن من حق المتقدمين في السن أن يشعروا أن الزمن الجديد بشروره الجديدة أكثر إخفاقا بكثير من الزمن الغابر. أستطيع أن أقول أيضا إنه يقع في تقدير كل فرد أن يقيم الشر كما يريد، حيث لا يقاس حجمه بالمتر. لا أقولهما معا رغم أننا سنكون متفقين. لكننا متفقان فقط في الحكم على زمن نتن وفي أننا نرحب بانهياره. وعلى العكس فإنكم تفكرون بشأن ما تبعه بمرح أكثر مما أفعل. إنكم لا تسألون عن الثمن. إنكم لا تتحدثون عن الوضع الصعب لأولئك

الذين أُطلِقوا من الحبل ووقعوا بعد القفزات الأولى في الهواء في حيرة بشأن المكان الذي يمكنهم أن يتجهوا إليه في المحيط الواسع الملون ولكن الخالي من الدليل. ضعوا نفسكم في وضع إمرأة من 1950 تقف أمام خزانة الملابس. هنا ثمة حاجتان أو ثلاث ليوم العمل معلقة وثوب ليوم الأحد. إنها لا تتردد، قبضتها واثقة. لكن إمرأة اليوم تقف طيلة نصف ساعة أمام خزانة ملابسها المكتظة، تصاب بدوار خفيف وتشعر أن أي اختيار هو اختيار خطأ وتنتهي في العادة إلى أنها لا تملك ما ترتديه. حسنا، يحق للمرء أن يبتسم من هذا النوع من العوز.

ولكن للمرأة الآن أطفالا يجب تربيتهم.

حسب أي قواعد؟ بأي طرق؟ نحو أي أهداف؟ العرض واسع ومتناقض وصلاحيته محدودة. هل تعرفون آباء لا يشعرون بقلق عميق للغاية؟ هل تعرفون أمّا لا تشعر أنها تفعل كل شيء تقريبا بطريقة خطأ، أو تشعر وهي تلقي نظرة إلى الوراء أنها قد ارتكبت خطأ؟

كساخر يستطيع المرء أن يقول: الأمهات أو الآباء يشعرون، وهم على حق، أنهم مخفقون، فانظروا إلى ثمارهم: الكثير من مضطربي السلوك، الكثير من الناس غير المستقرين، المتذبذبين، المتخبطين والمبحرين في الوجود دون وجهة. ولكن سيكون هذا كما قلت ساخرا ويشبه إلى حد ما، أن يحمّل المرء قبطان السفينة الذي تعطل جهاز الإبحار لديه

بسبب قوة لا حول له عليها، الذنبَ في أنه لم يوصل المسافرين إلى البر. باختصار، في المرحلة الماضية شكل لنا نظام ملزم من القيم أخلاقا ضيقة ومتشددة وغالبا معوجة ودائما محمّلةً المرء فوق طاقته. في الوقت الحاضر الذي ارتفع فيه نظام مراتب القيم، وأصبحت هذه نفسها شأنا خاصا، حين أصبح الفرد حرا بأي منها يريد أن يستهدي، تفشت الحيرة: لا أصعب، لا شيء يحمل المرء فوق طاقته أكثر من أن يكون عليه أن يبحث ويختار دون عون. لا أريد أن أتابع تحديد النوع القديم والجديد من الإجهاد وأقول فقط كي لا تضعوني في الزاوية الخطأ: لا أجد ما هو أكثر مدعاة للحزن وأكثر خطورة من صراخ المحررين طالبين التوجيه والسند — وربما السوط.

سقطت قطرات مطر، لم يبدُ على لوس أنه لاحظها. رغم أنه توقف عن الكلام لكني لاحظت أنه لم يكن قد انتهى. حسنا، قلتُ . حسنا، قال، لو أننا أضفنا الآن إلى الشكل الجديد من العنت الآخر الأكثر جدة الذي يشترطه التطور العاصف في العلوم والتكنيك والذي يكمن في أننا نحاول أن نماشيه بلسان لاهث ودون نجاح، وأن علينا أن نتبين شاحبين كيف يصبح في الغد ما كسبناه اليوم من علم ورأي شيئا قديما — عندئذ، كما أعتقد، يتأكد أن ادعائي بأن حجم البؤس الروحي لم يسبق له مثيل ليس بالغ الجرأة. كيف ستمضي الأمور؟

هل يحق للمرء أن يأمل في ثورة حيوانات البزاق ومن جُعلوا بزاقا؟ ما رأيكم؟ - رأيي أنها تمطر، قلت، وأنه ربما كان علينا أن نغير مكاننا. — بالفعل، قال، إنها تمطر. بعد أن اتخذنا مكاننا إلى المائدة التي كانت قد حجزت لنا في البناء ذي الواجهة الزجاجية وطلبنا نبيذنا نصف الأبيض وجيء به، قرعنا كأسينا. نخب ثورة البزاق، قلت. — إلى الهيار قريب للأعمدة! قال وأهداني ابتسامته نصف المتخابثة نصف المتحسرة. — ولأنه يتلهف على معارضته قلت بعد ذلك، إنني أريد أن أواجهه بنتيجتين تطبيقيتين لا بد أن تضعا تشخيصه موضع الشك. الأولى تقويها الإحصائيات والثانية توصلت إليها من مشاهدتي الشخصية. هكذا يظهر استطلاع جديد ومعتمد موضوعه الوضع النفسي والبدني والمادي للجيل الأكبر سنا، أن هذا الجيل حسب تقديره الذاتي يشعر بالرضا بشكل أكبر كثيرا من المجموعة من نفس العمر التي وجه إليها السؤال قبل عشر سنوات وعشرين سنة. أما الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين خمس عشرة وثلاثين سنة فقد أظهروا حسب ملاحظتي سلوكا مرحا محبا للاستمتاع وميالا إلى المرح والمسرات — وليس كئيبا سوداويا وهو ما يُتوقع لو كان طرحه للوضع صحيحا. على المرء فقط أن يشهد مرة كمتفرج استعراضا في الشارع ليرى كيف أن الكثيرين جدا من الشباب منفتحون

ومتحمسون. وما يتعلق بي شخصيا، بي كرجل في منتصف الثلاثينات، فإنني لا أستطيع أيضا أن أتحدث عن البؤس: إنني أجد الحياة سهلة، وقصرها هو بالنسبة لي نداء إلى عدم الإعراض عما هو لذيذ فيها.

لذيذ بوجه خاص، قال لوس، وأشار إلى قائمة الطعام، شرائح لحم الأرنب، إنه ينصحني أن أتناولها. — هل هذه مناورة لصرف نظري أم أنك لا تأخذني بجدية؟ سألت. — لقد قلت إنني في مزاج لهو، أجاب، وعدا هذا فإن رأيي أننا ينبغي أن نطلب الطعام قبل أن أستعد لضربة مضادة. – أعرفها، قلت. سأل: ماذا؟ شرائح لحم الأرنب، كانت طعام الوداع في الخارج على الشرفة. — لا أفهم تماما، قال لوس. — ربما لم تسمع ما رويته عن أنني كنت هنا مرة مع صديقة كانت مقيمة هناك في المصح وأنني هنا في هذا الإطار المرح، أردت أن أقترح عليها إنهاء علاقتنا. وهكذا فإن كلينا قد أكل فيليتو دي كونيغليو. — جميل، قال لوس، ولماذا كانت هناك؟ – مشاكل عصبية، اضطراب لا إرادي، قلت. — صمت لوس برهة ثم قال، هذا يعود بنا إلى الموضوع ثانية، للبؤس وجوه كثيرة، وجهاز عصبي مضطرب هو واحد منها، هادئ، لطيف وإن كان بالنسبة لمن يشكو منه صعب الاحتمال. إلا أن الأكثر انتشارا هو شيء آخر، هو أقرب إلى القناع، طريقة للتعبير

تجعل الألم غير ظاهر، ألا وهو المرح الصاخب. شبابكم اليقظ يا سيد كلارين يعرف بالفطرة ما سيعنيه التأمل والهدوء: السقوط في حلق الواقع. سواء صدقتم هذا أم لا، شهدت مرة من على جانب الشارع استعراضا، وما رأيته هناك كان مسيرة حزن. بالطبع مدوية. — وإذن فالابتهاج بالحياة عرض من أعراض الكآبة، قلت، هل أنتم مجنون؟ – لست مجنونا، لكن هذا ليس دليلا على لا معقولية تفسيري. وحتى لو كنت أحمق، كان يتوجب عليكم مهما يكن أن تقروا بدلالة الحمق لدي، للأقنعة والتخفي من جميع الأنواع، لفنون التقنع للروح الحزينة. يبدو لي أن نظرتكم التجريبية لا تميز بين الملابس والملابس التنكرية، من هنا جاء احتجاجكم الشديد.

إنني أعطيكم بسرور وأبوة جملة لطريق حياتكم التقطتها في مكان ما وأستطيع أن أستشهد بها بالمعنى: حين ترى عملاقا إسأل نفسك أولا، عما إذا لم يكن ذلك ظلا لقزم. — جميل، قلت، جميل ويستحق الاهتمام، عليك أن تلتزم به وليس أن تستنتج منه الخلاصة الخطأ بأن *كل* وجود هو مظهر وحسب — أو كل حب للحياة هو حزن مُقَنَّع. المقولة لا تضع وجود عمالقة حقيقيين موضع تساؤل. — هذا صحيح، قال لوس، فلنطلب طعامنا الآن، كدت أنسى أن هذا يعني أن الشيوخ السعداء يمكن شطبهم بسرعة. على أي فئة من الأعمار تنسحب

النتيجة الإحصائية بالضبط؟ - على المتقاعدات والمتقاعدين. — هكذا إذن، على المتقاعدات والمتقاعدين، يجب الأعتراف بأنها فئة واسعة، يسرني أنها تشعر بالرضا أكثر مما كانت في الفترة السابقة، ولكن لا أستغرب، فقد خلفت الأكثر قسوة وراءها، تحررت من الكثير من ألوان القسر ولديها ضمانات معاشية أكبر من السابق. لا أريد أن أتحدث عن غباء فئات مهمة من الشيوخ، رغم أنها تسهم أيضا في الشعور بالرضا. مهما يكن، نتيجة الإستطلاع تؤكد تشخيصي، أعني أنه يمكن بدرجة الرضا قياس عدم الرضا الذي سبقه. فإذا كان المتقاعدون يشعرون بالرضا أكثر من أي وقت آخر، فلا بد أن يكون الوضع الذي نجوا منه معذبا أكثر من أي وقت آخر، أليس كذلك، وإذن نستطيع أن نعطي طلبنا، سأتناول شرائح لحم الأرنب. انضممت إليه. ولأنه بدا لي عديم المعنى أن أضيف شيئا آخر حول الموضوع تلكأ الحديث بيننا. فكرت أنه يقود كل ماء قليل إلى طاحونته ويجمع أدلة عن بؤس العالم، مهووسا مثل أي من هواة الجمع. — قد يبدو كذلك، قال الآن، وكأنني أقصد الرضا البائس من كوني على حق، ولهذا علاقة بأن المرء لا يسمع صوتي الثاني المتوسل، حين أتكلم.

إنه يقول بعد كل جملة لي: أيها العالم الحبيب، عاقبني على كذبي رجاء. - ثم؟ سألتُ، هل يجيب العالم بين حين وآخر؟- نعم، ولكن

جوابا متهربا وأقرب إلى أن يثير الشعور بالعجز. جميع جملكم الصغيرة الحبيبة، يقول لي، إنكم لا تستطيعون الإمساك بي. لم أعد أدع نفسي منذ وقت طويل أدرَك وأُعرَض. آسف. — قد يكون على حق، قلت، وهكذا فعلينا في الواقع أن نصمت عنه. — فقط لا تستعجل، فقط ليس باستسلام هكذا، أجاب لوس، لا تزال لدينا إمكانات أخرى.

وهي اثنتان على الأقل: شتم العالم ووصف العجز الذي تضعنا فيه طبيعته المعقدة غير المبالية. وثالثا، يخطر لي هذه اللحظة، أن ثمة جملا لا تمتلك الطموح في سبر كنه قانون العالم، يستطيع المرء لحسن الحظ أن يتحدث أيضا عن كرة القدم، عن الكلاب وأسباب الوفاة، يستطيع المرء أن يروي قصصا عاشها، سمعها أو اختلقها، باختصار، نحن، لنتحدث بوضوح، لسنا مضطرين أن نجعل من السيدة التي أعرضت عنا موضوعا لحديثنا، لدينا مادة أخرى كافية.

بعد أن جيء بالطعام أغلق لوس عينيه لحظةً كما فعل في المساء السابق ثم تناول الشوكة والسكين.

بعد بضع لقيمات توقف وقال إنه كثيرا ما تألم حين يكون قد تناول طبقا من اللحم الجيد لأن زوجته لا تستطيع أن تشاركه المتعة، لأنها كانت قد رفضت أكل لحم الحيوانات ذات الدم الحار. في البدء حين تعارفا، بعد تحولها إلى النباتية بوقت قصير كانت شديدة الحماس مثل

جميع الذين يتحولون إلى مذهب آخر، وقد أوضحت مرة، وهو ما صدمني، أنها مبدئيا لا تقبّل رجالا يأكلون اللحوم. الحمد لله أن الحب كان أقوى من قصدها الزاهد، من القوة بحيث أنها، زوجته، رغم بقائها على تناول الأطعمة النباتية،

كانت تقلي له بين حين وآخر دجاجةً أو شريحةً من لحم الخنزير أو لحم الضأن وما إلى ذلك، ولكن دائما بخوف مؤثر من أن يفشل ما تكون قد أعدته. لكنه لم يفشل أبدا، إنما حدث العكس. الآن أحيانا، حين يتأهب للطعام، يرى عينيها الزرقاوين المائلتين إلى الخضرة، تنظران إليه بتوجس، كما هي عيناها بشكل عام وهو أول ما يرى حين يستحضر صورتها في ذهنه.

لحسن الحظ، قلتُ، لقد جارته زوجته في شرب النبيذ على الأقل واستطاعت أن تستمتع معه بميرلوت بيانكو الذي كنا نشربه. —

توقف لوس عن المضغ، حدّق في، بلع لقمته وسأل، من أين أعرف هذا. — لأنه رد أمس على سؤالي عما إذا كان ينصحني بتناول النبيذ بالجواب الغريب: "لقد شعرنا دائما أنه معتدل." لا ينسى المرء مثل هذا الجواب، وقد استنتجت من هذا الآن ببساطة أنه كان يعني بقوله نحن زوجته وهو. — هكذا كان الأمر بالفعل، قال لوس، لقد شرب هنا قبل سنة بين حين وآخر قدحا من النبيذ مع زوجته. — سألت

عما إذا كنت أستطيع أن أستنتج من هذا أنه رافقها في عطلة النقاهة.
– هذا الاستنتاج صحيح هو الآخر، قال، لكنه يكون مسرورا لو لم يكن عليه أن يتحدث عنه مؤقتا. كيف كان يومي؟ – أستطيع فقط أن أكرر، قلتُ، كان يومي قصيرا ومجدبا، كان ينقصني الزخم، الوضوح في الرأس، بقي العمل غير منجز، وقد كدرني التعطل، وهكذا فقد كان يومي هباء، ويومكم؟
بدأ يومي بداية فجة، وفيما عدا هذا ليس ثمة ما أشكو منه. — صداع، وجع في الرأس؟ – لا أثر لذلك، قال لوس، ولكن بعد أن رن المنبه، الذي لم يكن رنينا وإنما سلسلة من أصوات الصرير مثل كل شيء هذه الأيام غفوت ثانية غفوة قصيرة. هنا ضايقني كابوس مزعج، حلم أ ت ن. — مضغ لوس، سألتُ، ما إذا كان هذا تعبيرا اختصاصيا نفسيا. — لم يصبح بعد، قال،
ولكن في الظاهر قريبا. أ ت ن تعني نظام تأهيل مؤثرا في الأجر وقد تغلغل تحت هذا المصطلح الرنان بناء على طلب من الاقتصاد ومنفذيه الكلبيين في غرف المدارس أيضا.
من أجل تأهيل المعلم يأتي من وقت لآخر زائر، يجلس على المصطبة في الصف الخلفي، ينشر أوراقا مختلفة وقائمة تدقيق أمامه ويلاحظ خلال الدرس كفاءة المعلم في مادة اختصاصه وفي طرق التدريس وكفاءته

الاجتماعية، حيث يتوفر لديه للحكم على هذه الكفاءات الثلاث لا أقل من تسعة وثلاثين معيارا. بهذا يعرف أن إحدى عشرة نقطة مهمة توجد على لائحة التدقيق فيما يتعلق بالكفاءة الاجتماعية، بينها الإشارات وتعبير الوجه للمعلم الذي يجري تأهيله تأهيلا مؤثرا في الأجر، أبعد من هذا، مهما كان يعني، تأثيره كقدوة ونقطتان أخريان هما قدرته على المواصلة ومرحه، كلا الكفاءتين الاجتماعيتين المؤثرتين في الأجر اللتين يكافح المرء من أجلهما باعتباره معنيا بهذه الفعالية، ولكن غالبا دون جدوى. باختصار، تابع لوس قبل أن يعود ليمسك بالسكين والشوكة: إذا كان نظام التأهيل المؤثر في الأجر كابتكار لغوي كابوسا، فما أقساه حين يتعلق الأمر بمعناه وكم هو شديد أن يحلم المرء به صباحا. — ما عسى أن يكون ما حلمت به؟ – المعتاد، جئت إلى الصف متأخرا ودون أي تحضير، وكلاهما لا يحدثان في الواقع أبدا. بقي التلاميذ صامتين، كانوا يمضغون اللبان، يرسلون ويستقبلون رسائل تلفونية قصيرة، وضع المفتش علامة ×، أخذني بعد انتهاء الدرس جانبا وهمس في أذني أن الغضن فوق أنفي كبير، هذا يعني شيئا من التخفيض، هنا افقت من نومي. للأسف لاحقني الغضن فوق أنفي، والذي يسمى بالعامية تجعيدة الغم،

طول النهار، وفي لوغانو، خلال النزهة، بحثت عنها في جميع الوجوه كما لو كنت مصابا بعصاب القسر، ولكن عدا هذا كان يومي محتملا كما قلت.

أمس، خلال سيرنا ليلا إلى أغرا، قلتُ، لم يك ن يريد الحديث عن المدرسة وقد اكتفى بالقول، مأساة. ما إذا كان قد قصد بذلك نظام التأهيل الذي شرحه توا. — على الهامش هذا أيضا، قال لوس، جزء من البربرية التي تصخب بها المدارس. منذ أن أتفق من يسمون بساسة التربية على أن المدرسة يجب أن تكون موجهة إلى الأمام – بالمناسبة تعبير يقول كلّ شيء عن الموقف الفكري لهؤلاء الناس–، منذ ذلك الوقت صارت أبنية المدارس تدوي بصدى لهاث وانقطاع أنفاس التلاميذ والمعلمين. ولكن ما دامت ثمة قطعة صغيرة من شريحة لحم الأرنب وبضع قطع من الفاصوليا فوق طبقه سيمتنع عن إضافة أية كلمة أخرى في هذه المسألة، فقد قلل الـــ أ ت ن من شهيته. على المرء أن يتخلى أثناء الطعام عن مادة الحديث غير الممتع، هذا ما تعلمه من زوجته، وقد التزما بذلك أيضا بوجه عام، وهو ما حكم عليه بلا شك بشكل ما بالصمت، خاصة بالطبع إذا ما سبقت قراءة الجريدة وجبة الطعام. إنه، يذكر ذلك بشكل عرضي، قارئ صحف مدمن، ولكن بينما يخلق إشباع الإدمان المرح عادة، يسبب له غالبا الغثيان،

أليس هذا تناقضا؟ – من النظرة الأولى فقط، قلت، إذ يوجد أناس لا يكرهون الشعور بالغثيان وهم أقرب إلى أن يكونوا تواقين إلى كل ما هو غير سار. — أنتم تقصدونني، قال لوس، لقد دافعت عن نفسي ضد شكوككم أكثر من مرة، ومع ذلك، على الصعيد العام أنتم على حق: دون أن يكون قد تلوث بالقذارة يتوجب على كل شخص حساس إلى حد ما أن يغسل يديه بعد قراءة الجريدة، لكننا لا نزال نأكل، معذرة، وقد كان يومي هذا فقيرا بالمنغصات حقا،

إذا ما صرفنا النظر عن الحلم المذكور وربما عن أنني بحثت في محلات لوغانو المختلفة دون جدوى عن شيء لم يعد ينتج تقريبا فيما يبدو، لأن اهتمام صناعة الأنسجة بحاجات وعادات الناس المسنين يتناقص باطراد. لقد ارتديت سروالا داخليا بفتحة أو مدخل طوال خمسين سنة — يدعى فتحة في سويسرا ومدخلا في ألمانيا–، لكن هذه السراويل ذات الفتحة أو المدخل قد اختفت من الأسواق شيئا فشيئا. زوجتي، يخطر لي توا، عاشت مرة شيئا مشابها. كانت حمالات الصدر ذات الماسك المعدني أو الأسلاك شائعة، وجدت صعوبة كبيرة في أن تعثر على حمالات عادية في أي مكان. لم تكن تستطيع ببساطة ارتداء حمالات ذات ماسك معدني، لأنه كان يذكرها بأفظع حادثة في حياتها، لكن ليس هذا محلها، أردت أن أقول أن السراويل العادية

أزيحت بشكل منظم من قبل سراويل داخلية لا تؤدي الغرض منها، لم يعد لها شق ولا تكاد تختلف عن سراويل النساء الداخلية، حتى يتوجب الحديث في قضية الملابس الداخلية الرجالية عن أنثنة متسللة وإزالة للفروق. — أرجوكم، يا سيد لوس، هناك أيضا سراويل الملاكمين القصيرة، وهي خالية من أية لمسة أنثوية! — جربتها أيضا، قال لوس، إنها بالنسبة لي واسعة جدا، لا تحقق مأمنا، ولكن هو ذاك، العالم يتصدع، والمرء يبحث فيه عن الكثير من الأشياء دون جدوى. صمت لوس وبدا شاعرا بالمرارة. لم يكن على ملامحه أبسط تعبير يشي بأنه يجد شكواه مضحكة. إما أنه كان فنانا في التنكر أو أنني أمام شخص يعاني من الاضطراب النفسي. رغم استغرابي رفعت كأسي وقلت معزيا: نخب المدخل! — إبتسم الآن، رفع هو الآخر كأسه وقرعها بكأسي. ثم شربها دفعة واحدة. إنني في الواقع خالي البال، قال،

فقد عشت في لوغانو أيضا ما هو جميل، شيئا يكاد يكون عجيبا، هل تريدون أن أرويه لكم، أم أنكم تفضلون أن أكون أهدأ قليلا؟ – سألته بدوري إن لم يكن يستطيع تصور كم يثير فضولي أن أسمع من فمه مرة ما هو غير رافض. — الشكوى هي وظيفتي وبرنامجي، قال لوس. — خيالي متحذلق، فكرتُ، وقال لوس: شيللر. — ثم روى لي

– وكان النادل قد رفع الأطباق خلال ذلك، أنه كان قد اشترى من كشك للصحف في محطة لوغانو جريدة، خدمته السيدة بلطف، كما وعدت اللافتة المعلقة خلف الزجاج والمطبوع عليها *ضمان اللطف*. ثم مر في الساحة الأمامية للمحطة بجهازين اوتوماتيكيين، جهازين لالتقاط صور جوازات السفر، وشعر في الحال بالرغبة في أن يرى نفسه ثانية في صورة. كانت إحدى الكابينتين مشغولة، الستارة مسدلة، جلس في الأخرى، ألقى قطعة النقود واستعد بعينين مفتوحتين لوميض الضوء الذي أجفله مع ذلك. خرج الشخص من الكابينة المجاورة في نفس الوقت الذي خرج هو فيه تقريبا، إمرأة طريفة في حوالي الأربعين لم تومئ له برأسها ببساطة وإنما ابتسمت له، كان محرجا، وقد تصبب عرقا. خلال انتظار تحميض الصور إلتقت نظراتهما مرات عديدة، كانت نظرة المرأة دافئة ومتفحصة أما نظرته فأقرب إلى الخجل، كان في كل مرة أول من يحول نظره عنها. لم يجر حديث بينهما، لم يخطر له شيء، فلم يكن طيلة حياته رجل مجتمع . أما فيما يتعلق بالعفوية فإنه مبتدئ: هكذا عبرت زوجته مرة، حرفيا، ولكن بتسامح كبير. حين انزلقت الورقة ذات الصور الأربع في درج الاستلام شعر بالارتياح وأخذها في الحال، كانت لا تزال دافئة ورطبة قليلا. وكمن تلقى ضربة على الرأس تفحص الصور و لم يشأ أن يدرك

ببساطة أن صورة نصف المجنون هذه والمجرم المطلوب من خلال منشور،

هي صورته هو . رغم أنه يرى وجهه كما تعكسه المرآة كطبيعة خريف مظللة، ولكن هذا لا يعني أنه يجده لا يطاق. وعلى العكس فإن الوجه في الصورة كان إساءة، وقد بلغ هلعه الذروة حين خاطبته المرأة التي يبدو أنها كانت قد راقبته وكانت خلال ذلك قد حصلت على صورها هي أيضا.

أطفأ لوس سيجارته ومسح بالمنديل العرق بعناية متعبة عن جبينه ورقبته. شرب. شرب بسرعة كما في المساء السابق. لم يبدُ مثل مجرم، إنه أمر غامض بالنسبة لي، لماذا مرت في ذهني حين تلفظ بالكلمة الفكرة المرعبة بأن لوس ربما كان قد قتل زوجته. لم يكد يمر بعض الوقت على هذه الفكرة حتى أدركت أيضا فكاهيتها، وكتبرير لم يبق أمامي إلا أن آخذ رييتي التي استغرقت ثواني كعلامة على أن هذا الجالس قبالتي لا يزال غريبا تماما وليس مريبا. إني أميل حقا بشكل عام إلى توقع كل شيء من الجميع، فمن كانت له تجارب في القضاء لا يمكنه غير هذا. ورغم ذلك خجلت من رييتي العابرة إزاء لوس الذي لم يبد أولا أنه في إجازة من السجن، وثانيا تحدث عن زوجته بحب وعن الحياة الزوجية المتجانسة معها حتى أن المرء ليكاد يحسده.

فيم تفكرون؟ سأل لوس. – أخ، قلتُ، في الواقع في لا شيء، سألت نفسي فقط لماذا يبدو المرء في صور الأجهزة الأوتوماتيكية غالبا أبله قليلا، وحتى مجرما تقريبا ولماذا يحدث هذا للرجال أكثر مما يحدث للنساء. ألا يمكن أن تكون، سأل لوس دون أن ينظر إلي، قد فكرت في شيء آخر؟ بلعت ريقي ونفيتُ. – الأفكار حرة، قال، بالمناسبة، أفكارك صحيحة، لقد بدت المرأة الغريبة على أية حال في الصورة تقريبا كما هي في الطبيعة تماما، لطيفة جدا، إذا لم نقل ساحرة. ولكن أولا بأول. أردت لتوي أن أذهب للبحث عن سلة للقمامة.

هنا حدثتني المرأة وسألتني عما إذا كنت أسمح لها برؤية الصور. لا أعرف ما الذي جعلني أكثر ذهولا: طلبها الغريب أم شبَه صوتها بصوت زوجتي. تأتأت، الصور فظيعة، لقد أخفقت حتى أنني أخجل أن أريها اياها. ابتسمت الغريبة. قبعتها، منديل برتقالي اللون، مربوط ومنسدل، برتقالي هندي دافئ، ذكرني أيضا بزوجتي وبالوقت العصيب الذي حُلِق فيه شعرها. قالت الغريبة الآن، إنها تجد الأشياء المخفقة مثيرة. لم تجب على سؤالي لماذا، إقتربت مني خطوة، مبتسمة ثانية أمسكت برفق شديد جدا بالورقة بين أصابعي المسلوبة الإرادة. لنجلس، قالت مشيرة إلى المصطبة المعدنية إلى جانب كابينة التصوير. هناك نظرت إلى الصور و لم تقل شيئا. بعد برهة سألت: هل تسمح لي

أن آخذ واحدة منها؟ كيف؟ سألتُ. قالت: أيجب تقديم حجة لكل شيء؟ ربما لا، قلتُ، لكني لا أحب أن أهدي نفسي مشوها هكذا، أم أنك تجمعين أشكالا مخيفة؟ – فتحت حقيبتها اليدوية وأخذت منها مقصا صغيرا جدا، ولأني كنت مبلبلا لم أفعل شيئا وتركتها تقص واحدة من الصور الأربع بعناية وتفانٍ طفولي. والآن الهدية المقابلة، قالت، وقصت واحدة من صورها، أخذت يدي الطليقة المتشنجة والمنقبضة، فتحت أصابعي واحدة بعد الأخرى ووضعت الصورة في يدي.

بدا لوس متأثرا. قال إن عليه أن يذهب بسرعة إلى غرفته. لاحظت الآن فقط، حين ذهب أنه كان قد لبس البلوزة الخفيفة عديمة الأكمام بالمقلوب: كانت قصة العنق التي تشبه الرقم سبعة من الخلف، وفي الخلف إلى اليمين في مستوى لوح الكتف ثُبّت زر حداد أسود. لم يضحكني المنظر، وجدته مربكا بشكل ما. غاب لوس حوالي عشر دقائق وبدا متغيرا حين عاد. قال إنه كان يشعر بحاجة ملحة إلى أن يحلق ذقنه. الآن يشعر براحة أكبر.

كان يلبس البلوزة الآن بشكل صحيح ولكن دون زر الحداد، سميت ما عشته عجيبا، وهو ما كانه أيضا، قال، ولكن لم يرفعني فقط وإنما أحناني أيضا في نفس الوقت. — معذرة، قاطعته، لم تروا القصة حتى

النهاية، ماذا حدث بعد ذلك؟ - لم يحدث شيء بعد ذلك، لا بد أنني هربت، وجدت نفسي في بوستاوتو بعد مونتاغنولا، حيث أفقت من التخدير، دون أن أستطيع أن أتذكر كيف وصلت إلى المحطة. إذا لم يجد المرء تفسيرا أفضل، فإنه يمكن أن يرى تقريبا أن الغريبة قد سحرتني، أليس كذلك؟ - يا إلهي، أيها السيد لوس، ماذا يعني سحرت؟ لقد أغرتكم تلك المرأة، هل أنتم أعمى، لقد تطفلت عليكم ظاهريا، على الأقل طلبت، وأنتم تهربون بدلا من أن تأخذوا شاكرين، إنه حقا شي غير معقول. — نعم، إنه شيء لا يصعب فهمه يا سيد كلارين، خاصة للمخلوقات العفوية والآخرين المستعدين في كل الأوقات، ومن ناحية أخرى فإنه سهل الفهم وسهل التفسير في الواقع. إنني أنتمي منذ أن سلبني القدر زوجتي إلى الطبقة السفلى، طبقة المدنسين. إنني لا أدرك في هذه اللحظة بمن أثق، إنني لا أكاد أعرفكم، أنتم شاب، وأنتم مختلف، واستقلالكم فيما يتعلق بالنساء لا يسهل عليكم فهمي، سيان، سيان، أقول بصوت عال: إنني معوق! قال لوس هذا بصوت عال فعلا، وساد الصمت على المنضدة المجاورة. رأيت يدي لوس اللتين لم تكونا مكتترتين أو بمخالب، وإنما تتناقضان في رقتهما تناقضا غريبا مع هيأته الضخمة، ترتجفان. إنتظرت حتى تابع الأربعة على المائدة المجاورة حديثهما، ثم قلت للوس، تبدو لي

كلمة معوق قوية جدا، الأمر يتعلق بالأحرى بتشنج مؤقت. يبدو أنه أغلق الباب أمام الشهوة بعد وفاة زوجته دون رحمة، حتى أنه الآن، إذا ما لمسته يشعر بالتهديد ويتشنج. هذا مفهوم، ولكن مؤسف.

ويصبح عوقا إذا احتفظ بهذا الحاجز بسبب فهم خاطئ للإخلاص. ما إذا كان يعتقد أنه يتصرف وفق رغبة الميتة، إذا لنقل خصى نفسه، إذا ما عاش حياة راهب حتى النهاية؟

هناك أمور روحية، قال لوس، لا يمكن توجيهها، من المعروف وجود عوائق داخلية مستقلة عن الإرادة، لا تصلها النداءات، لهذا فنصيحتي، أن رفع الحاجز رغم حُسن القصد عديم المعنى.

ثمة شيء ما مستعد للشهوة فيه، إنه شخص حسي، وشيء ما فيه يقوم بالتخريب ما أن يقترب من النار. فسرتُ خطأ هذا "الشيء ما" الثاني بفهم خاطيء للإخلاص، ولكن الأمر لا يتعلق هنا بالإخلاص، حتى ذلك الذي فهم فهما صحيحا أيضا. فالإخلاص ينبثق من فعل إرادي، لذلك يعتبر فضلا أخلاقيا، أما هو فإنه لا *يريد* الحاجز أبدا وهو بالمناسبة لم ينتبه إليه إلا في نصف السنة الأخيرة، حتى وإن حدث ذلك نادرا، صار مستعدا بشكل عام أن يدخل الميدان.

لدي صديق، سعيد في حياته الزوجية، قلتُ، وهو يؤكد أنه لا ينقصه شيء، في السرير أيضا. ورغم ذلك يعاشر مرة بعد أخرى نساء

أخريات. إنه يوضح أن شهوته ليست مثبتة على إمرأة محددة. باختصار، إنه لا يلتزم بالإخلاص بدقة، وهو يرافق رفيقاته في العلاقات العابرة بتسامح شديد. هذا ما يبدو على أية حال، هذا ما نقله دائما، ولكن منذ وقت قصير جاء إلي في ساعة متأخرة من المساء، ثملا، تعيسا. قال أنه يطيل التفكير في مسألة ولا يصل إلى نتيجة. طلب مني رأيي كما طلب مني التَكتُّم. كان سؤال الصديق كما يلي: العضو الذي لا يتصلب خارج العلاقة الأساسية رغم الشهوة الكبيرة: إلام يشير؟

لا أدري ماذا تريد، قال لوس بخشونة، ليس للعائق لديّ طبيعة بدنية، ماذا تهمني مشاكل شخص يخون زوجته؟ – الآن، قلتُ، تستطيع أن تشير إلى أن الإخلاص، على العكس من فهمك له، لا يعود الفضل فيه إلى الإرادة، وإنما، كيف أوضِّح الأمر، إلى انقياد تحت أرضي. مهما اختلف حاجزك عن حاجز صديقي، أفسر كليهما كنتيجة لسلطة داخلية، تصر على الإخلاص. – أليس هذا مبتذلا إلى حد ما؟ سأل لوس. – ربما، أجبت، ولكن هل يجب أن يكون المبتذل خطأ؟ في هذه اللحظة رن تلفون جوال. هز لوس رأسه واحمرّ وجهه. خشيتُ من انفجار نوبة غضب لديه. تناول سترته المعلقة على مسند الكرسي. سيذهب الآن، فكرتُ. دفع يده في أحد الجيوب الخارجية،

صمت الرنين. معذرة، قال، نسيت أن أغلقه. — لا بأس، قلت. — هل تعرف، قال، يستطيع المرء أن يلعن بصدق أيضا ما يشارك فيه، الحياة مثلا، في صحتك! — نخب التناقض، قلتُ، إنه يجعلنا مرنين. — إنه يسرق منا احترامنا لأنفسنا، ولكن أقول دفاعا عن نفسي: لقد حصلت على الشيء هدية، ولا يكاد يعرف أحد رقمي. — وإذن أنتم تعرفون من الذي أراد الآن أن يهاتفكم. — هكذا تقريبا، قال لوس، ولكن لنعد إلى موضوعنا. هل تعلم، سافرت زوجتي مرة أو اثنتين إلى إنكلترا لتزور صديقة لها، إبنة العائلة التي عملت لديها كمدبرة منزل حين كانت في التاسعة عشرة من عمرها. ولأنها لم تتحدث كثيرا عن هذه الزيارات، خامرتني ذات يوم ريبة وهو أمر غريب علي عادة. أرغمت صوتي على أن يكون مازحا وسألت لزوجتي عما إذا كانت هذه الصديقة موجودة فعلا أم أنها في النهاية صديق. شحب وجهها جدا. ظلت صامتة حتى شحب وجهي أيضا فيما أظن، فقد ظننت أنني أصبت. لم نتكلم أبدا عن الإخلاص، قالت أخيرا.

ولذلك فقد افترضت أنه كان بالنسبة لنا أمرا بديهيا. كان الإخلاص بالنسبة لها على أية حال حاجة، غريزة طبيعية صامتة، لا ترهق مثل الحب نفسه، وما دام الحب قائما أستطيع أن أكون مطمئنا. يبدو أن ثمة إخلاصا موجودا لا ينبثق من الإرادة كما ادعيتُ سابقا ولا من

سلطة غير واعية كما ادعيتم أنتم. وقد شعرت أن هذا الإخلاص الطبيعي مطمئن، و لم أكن على حق، كان ينبغي أن يثير فينا الخوف.

لم هذا؟ سألت. — مهما يكن، تابع لوس، كانت هذه الصديقة الانكليزية موجودة، ماتت في يونيو من السنة قبل الماضية، كانت نهايتها فظيعة وكان يمكن أن تكون نهاية زوجتي أيضا. كانتا تتنزهان معا في الهايد بارك حين هبت عاصفة بسرعة غريبة. ركضتا نحو مجموعة من الأشجار بحثا عن حماية من المطر، فقدت زوجتي خلال ذلك فردة صندلها. مضت بضع خطوات عائدة، انحنت إليها ولاحظت أن حزامها قد انقطع، كانت صديقتها قد وصلت خلال ذلك إلى مجموعة الأشجار وبينما كانت تلوح لزوجتي عن بعد حوالي أربعين مترا، كما لو كانت تريد أن تحثها على الإسراع، أصابها برق. ماتت في الحال وأمام عيني زوجتي التي لم تصب، ظاهريا، لكنها نقلت إلى المستشفى للفحص، فلم تعد ساقاها قادرتين على حملها. إتصلت بي في نفس الأمسية، وجدت صعوبة في فهمها، تحدثت كما لو كان ثمة من يخنقها. في اليوم التالي طرت إلى لندن وقضيت ثلاثة أيام إلى جانب سريرها. لم يجد الأطباء شيئا، تحدث المرء عن شلل مؤقت سببته الصدمة. في اليوم الثاني استطاعت أن تبكي، بكت طويلا، في البدء بكاء متشنجا، ثم بارتخاء أكثر فأكثر، وفي صباح اليوم الثالث،

حين دخلت غرفتها كانت تجلس على كرسي، نهضت وتقدمت لاستقبالي.

قبل إخراجها من المستشفى أبلغنا أحد الأطباء شيئا لا يكاد يصدق. كان السبب في موت الصديقة القوس المعدني في حمالة ثدييها، تحول المعدن إلى موصل مميت. إنها حسب قول الطبيب الحالة الثانية من نوعها في حدود علمه. وعلى سؤالي عما كان سيحل بزوجتي لو كانت تقف لصق صديقتها لحظة وقوع الصاعقة، قال الطبيب، الأرجح أنها ما كانت لتنجو. خلال رحلة سيارة الأجرة أمسكتُ بيد زوجتي التي بدت غائبة. ما قيمة الحياة التي يعود الفضل فيها إلى حزام صندل مقطوع، قالت زوجتي فجأة. — ربما أكثر من السابق، قلت، لكني استغنيت عن تقديم حجة، فقد شعرت كيف غاصت في داخلها ثانية. نعم، هذا ما كان، قال لوس، فقط لم أعد أعرف الآن للأسف ما الذي دعاني إلى الكلام عن هذا الحادث. قلت، كان الأمر متعلقا بشكه في وجود هذه الصديقة أو بإخلاص زوجته. وخلال ذلك نوه عرضا أن طريقتها في الإخلاص كان ينبغي أن تثير الخوف في نفسه. ماذا كان يعني بهذا، بقي غير واضح لي، لكنه يهمني. — قال لوس بعد بعض التفكير، مشكلة الإخلاص الطبيعي كما فهمتها زوجتي- وهو أنه شيء قسري يرتبط بالحب ويرافقه ما دام قائما -، مشكلة هذا

الإخلاص تكمن في أنه ليس إخلاصا، على أية حال إنه إخلاص افتراضي فقط. مثل الشجاعة. من لم يجد نفسه في خطر أبدا تبقى شجاعته غير ممتحنة وغير مثبتة، وبالتالي غير متحققة. هكذا هو الإخلاص أيضا، يحتاج ليكون واقعيا وثمينا إلى الإغراء، أو بكلمة أفضل: عدم الإخلاص المتحقق. نعم، الإنسان المخلص بالمعنى المتشدد للكلمة لا يكون مخلصا، لكنه يلتزم لشريكه المعني بالإخلاص. وهو، كما يجب علي أن أعرفه كمحامي طلاق، نادر أيضا مثل القلب الكبير الصافح في الطرف الآخر.

سألت لوس، حيث توقف برهة وشرب جرعة: أتراكم ستملكونه شخصيا في حالة الجد؟ – ماذا؟ سأل. — القلب الكبير، قلت. — إنتم لا تفهمون شيئا أبدا، لنقل، وهو أمر افتراضي تماما، ما كنت سأحتاج إلى قلبي. حين تقول لي إمرأة إنها مخلصة لي ما دامت تحبني، يتوجب علي أن أفسر عدم الإخلاص راضيا أو مستا ء كعلامة على حب منطفئ، وهذا لا يعبأ بقلب صافح، هل تفهم؟ – دون ريب، قلت، وأفهم الآن أيضا لماذا يجب أن يثير الإخلاص الطبيعي كما تسميه الخوف في الواقع. هل كنتم تفضلون أن تكون لكم زوجة امتحن إخلاصها من خلال عدم الإخلاص؟ – كانت كما كانت يا سيد كلارين، وكان عليك أن تعيش ثلاث حيوات لتصادف إمرأة من هذا

الخلق، بمثل هذه الرقة، من الداخل والخارج. — جميل أن تكونوا قد عثرتم على مرامكم في الحياة الأولى، قلت. ولا يسرني أنكم تحطون من شأني. — لم أقصدكم أنتم شخصيا، معذرة، وإنما الرجال جميعا، بما فيهم أنا نفسي، لم أكن أنا نفسي أكثر من خنزير أعمى، رغم أني لا أحب هذا التشبيه، لأن زوجتي كان ينبغي أن تشبّه بشيء أكثر نبلا من مجرد بلوطة. — ربما بكمأة؟ سألت. — سيكون هذا أفضل، لكن الخنازير قدر علمي تعثر على الكمأة دون مشقة بحاسة شمها، حتى وإن كانت عمياء. المثل الذي تحدثنا عنه يفقد إذن معناه إذا استبدلنا البلوطة بكمأة. وبشكل عام إنني أرجع عن تشبيهي، أيضا لأجلي، ففي الآخر، إذا جاز لي أن أقول هذا، لطالما وصفتني زوجتي من جانبها بأنني هدية، والآن، ما أنا الآن؟

رغم أنني رأيت أن لوس لم يوجه السؤال إلي وإنما إلى نفسه، قلتُ، إنه ربما يكون رزمة مشدودة بإحكام ولا مالك لها، لا يعنيها في الظاهر أن يُعثر عليها وتُفتح.

رد لوس لقد ذكر قبل عشر دقائق أنه كان في نصف السنة الأخير مستعدا بين حين وآخر أن ينفتح أو أن يُفتح. على سبيل المثال، وهو ما يدهشني، رد على إعلان للتعارف كان مكتوبا بصيغة شعرية، بل يذوب رقة في الظاهر. كان الحديث عن الغطاء الحريري للسماء ذات

النجوم، تأمل المعلنة أن تلتقي برجل ناضج تحتها. بينولوبي — هكذا كان الإعلان موقعا. وقد لمس الإسم المستعار عالِم اللغة القديم فيه وأثار فضوله حتى أنه بمساعدة زجاجة من النبيذ الأحمر كتب جوابا لم يوقعه باسم ايديسوس، كي لا يوقظ توقعات مبالغا فيها. لقد ضمّنه اثنين أو ثلاثا من التلميحات الرقيقة إلى مادة التاريخ القديم. بعد أيام قليلة اتصلت المرأة به تلفونيا، كان صوتها فجا قليلا، ولكن بالمقابل، ولدهشته، كان اسم المرأة بينولوبي بالفعل، ولكن بينولوبي كنودلر، وهو ما قلل من زهوه قليلا، كذلك جوابها على سؤاله كيف يستطيع التعرف عليها في مشرب النبيذ الذي اتفقا أن يلتقيا فيه. قالت له أن العلامة المميزة لها هي أن لها أذنا واحدة فقط في الجهة اليمنى. ضحك بجد، وهي ضحكة مدوية تقريبا. لكنه لاحظ أنه أصبح مسهبا جدا، سيختصر الآن، وهكذا التقيا، كانت في منتصف الأربعين، بائعة في مكتب وفي حد ذاتها جذابة، ولكن كانت لديها للأسف العادة السيئة في أن تعرف نفسها على الدوام، تقول على الدوام ما طبعها وما ليس من طبعها. ليس من طبعها، قالت على سبيل المثال، أن تنشر إعلانات تعارف، فهي ليست بحاجة إلى ذلك، فمن السهل عليها أن تنتزع في أي مشرب رجلا من منضدة الشرب، وهو ما ليس من طبعها.

باختصار، رغم أنه، لوس، عانى قليلا من طبع بينولوبي، لم يكن

مُعرضا حين دعته إلى كأس في منزلها. إنه استثناء، قالت له حين دخلا منزلها، إنها لا تنتمي إلى النساء اللاتي يأتين برجل بعد اللقاء الأول إلى منازلهن.

كان باب غرفة النوم مفتوحا، رأى سريرا عملاقا وفوقه لحاف هائل مزخرف بالنجوم. إنه، لوس، يختصر الآن. اختفت بينولوبي في لحظة ما في الحمام وعادت بعد أن استحمت تحت رشاش الماء طويلا وهي تضوع. كانت ترتدي قميصا قصيرا فقط، قميص نوم ذا مربعات مفتوحاً من الطرفين في الأسفل، جلست إلى جانبه على الأريكة، احتكت به وقالت إنها إنسانة تتصرف دائما منطلقة من طبيعتها. ثم سمته بالدب الناعم. يجب على الدب الناعم أن يستحم أيضا قبل ذلك، همست في إذنه بالحرف الواحد، وبدلا من أن ينصرف في الحال، تركها تدفعه بيديها دفعا خفيفا إلى غرفة الحمام، وفرضت عليه منديلا للاغتسال أخضر زيتونيا غريبا عليه تماما. حالما أصبح وحيدا أحس بأنه يقظ، استعاد قوة إرادته وقرر الانصراف. وكما هو متوقع كانت بينولوبي حين خرج من الحمام تحت اللحاف ذي النجوم، تَقدَّم من سريرها وأوضح لها بكلمات ودية أنه لا يريد البقاء، وأن ذلك لن يتطابق مع مشاعره. بدأت تنهنه مثل طفل صغير وتتشبث به أو بطرف سرواله. ثم بعد أن استطاع أن يحرر نفسه، وهو ما حدث

برفق قدر الإمكان، فقدت كل سيطرة على نفسها وكل لياقة وقالت فيما قالت، إنه ضيع أنثى مترددة. ولكن الأكثر سوقية كانت الكلمة الأخيرة التي سمعها من بينولوبي وهو بالباب، ألا وهي: يا لك من وغد صدئ. — هكذا أخفقت مبادرته لجس النبض إخفاقا بائسا بل قاسيا، وفشلت محاولته للانفتاح.

هذا ما قاله لوس بجدية كبيرة وصوت حزين. كتمت عدة مرات ضحكتي، مراعاة مني، فلم أرد أن أسيء إليه، وفي الآخر تماما فقدت السيطرة على نفسي. لم يشاركني لوس الضحك، لكنه لم يبدُ أيضا مجروحا أو غاضبا، نظر إلي متعجبا فقط. تمالكت نفسي بسرعة. قلت، لو كنت مكانه لما ترددت. أعرف، أعرف، قال، إننا لا نتشابه، حتى لو قيل دائما، إننا نحن الرجال متشابهون في كل شيء. — لا تنسوا، قلتُ، إنهن النساء اللاتي يمثلن هذا الرأي، ولا بد أنهن يعرفن ذلك في الواقع. — نشأت النساء مع أسطورة المربيات هذه، قال لوس، أعرف أمهات لا تنطبق هذه الصورة على رجالهن دون ريب، ومع ذلك يروين لبناتهن كذبا، أن الرجال لا يريدون سوى شيء واحد، وذلك دون اختيار أو بصرف النظر عن الحالة ما أمكن. يكاد المرء يظن بفظاظة أن صورة الرجل كتيس شبق هو بالنسبة لهن بالدرجة الأولى صورة للتخويف. — سواء كانت صورة للتخويف أم

صورة مرتجاة، فهي ليست غير معقولة يا سيد لوس. هل تعرفون كم مرة يفكر الرجل في الجنس في اليوم كمعدل؟ - لم أحسب ذلك أبدا. — ربما لا تفعلون أنتم، ولكن فريقا للباحثين توصل إلى أن الرجل يفعل ذلك مائتين وست مرات، إنكم تستغربون هذا، أليس كذلك؟

- نعم، قال، هذه نتيجة مربكة، إذا كانت جادة. لو أمرني فريق للباحثين أن أضع علامة ضرب في دفتر ملاحظاتي في كل مرة أفكر فيها بالجنس طيلة يوم كامل، فإنني لن أستطيع أن أفكر في شيء آخر، وسيكون دفتر ملاحظاتي عند الظهر قد امتلأ. — قلتُ، إنني أنطلق من أن نظام التجارب ليس سهلا تماما على هذا النحو. ولكن مهما يكن، كيف تستطيعون أنتم أن تتحدثوا عن أسطورة المربيات، بينما الغالبية العظمى من الرجال لديها تجارب مع الحب المشترى الذي يدور كما يعرف المرء، حول شيء واحد سريع ولا شيء آخر؟ - بخلافكم، قال لوس، لا أفهم الواقعة كدليل على التكوين الطبيعي للرجل، يعني لبنية غرائزه الحقيقية. — كأي شيء إذن؟ - كعلامة على عدم التحضر فيما يتعلق بالشهوة، وبربرية جنسية. في جميع مجالات الحياة، هكذا أعتقد،

ينتج الوصول إلى الهدف بسرعة والتنفيذ دون مراعاة أي اعتبار توحشا. التردد وحده إنساني. أردت في الواقع أن أقول: إن ما

تعتبرونه حاجة طبيعية أراه أقرب إلى الفساد، وما هو طبيعي للكلاب، لا ينبغي أن يكون كذلك للبشر أيضا. – كيف يمكن للمرء أن يكون أعمى هكذا، أو ساذجا على الأقل! قلتُ، هل تسمحون لي أن أسألكم ما إذا كنتم قد شاهدتم فلما جنسيا مرة؟ – نعم، قال لوس، سهوا، في غرفة فندق وقعت مرة سهوا على قناة للتلفزيون المدفوع الثمن، – حسنا، قلت، ستعرفون أن الأمر يتعلق بفرع اقتصادي مزدهر تبلغ مبيعاته المليارات، وجيوش من الرجال تشاهد هذه الأفلام، وذلك للسبب البسيط في أنها تلبي حاجة، لأنها تظهر ما يرغبون أنفسهم فيه وبما تحلم به غرائزهم، ألا وهو إشباع مباشر سريع لا يعيقه شيء. ما لم تقم رغبة حقيقية في ذلك أو طلب على هذه الأفلام لما وجد أيضا العرض الكبير منها. هل تعتقدون حقا أن جميع هؤلاء الرجال الذين يستهلكون هذه الأشياء فاسدون؟

نظر لوس إلى ساعته، شرب، سحب نفسا من سيجارته. ثم قال: لا مأخذ على ذلك. لقد أوضحت ذلك مساء الأمس – ولكن دون جدوى، كما أرى الآن –، أن يكون ما يُفكَّر به ويطبق على صعيد الجماهير، تدريجيا شيئا عاديا، بل طبيعيا، حتى لو كان مَرَضيا جدا، معوجا جدا أو بدائيا. أريد أن أستشهد بجملة بقيت في ذهني لأنني شعرت بالرعب حين سمعتها. مصدرها فيلم غرفة الفندق المذكور،

نطقت بها إمرأة وهي، أو أنها كانت موجهة لشريكها في الفعل. إنك تنكح مثل ماكنة، صاحت فيه وكانت تقصد بذلك ثناء مشجعا.
فإذا حلم رجال ونساء بهذا حقا كما تقولون، إذا ما رغبوا حقا أن ينجزوا الأمر مع بعضهم بهذه الطريقة الفجة — فلا يحق للمرء عندئذ أن يصف هذه الأحلام والرغبات بالفساد؟ – إنكم أستاذ في إيجاد أمثلة متطرفة، قلتُ.

كنت أقصد، إذا سمحتم لي أن أكرر، المبدأ. الدافع الغريزي يعني الدافع الغريزي، لأنه يدفعنا إلى التزاوج مع الموضوع المشتهى دون تسويف. ودون تسويف يعني أيضا: دون عائق أخلاقي، دون تردد، دون خجل. هذه رغبة طبيعية خالصة. وهي تفرض نفسها في أفلام الجنس منتصرة، وهذا ما يجعلها مثيرة.
لدي رغبة طبيعية أيضا، قال لوس، كأسي فارغة، هل نطلب واحدة أخرى؟ – دون تسويف، قلتُ، سيصبح الوضع صعبا فقط فيما يتعلق بالسياقة. — نمشي ثانية إذا اقتضت الضرورة، قال. وأضاف فجأة: حين كنت يافعا كان يكفي إعلان لحمالات الصدر في مجلة مصورة بالأسود والأبيض ليندفع الدم إلى رأسي ويغذي خيالي. لم أطلب إثارات أكبر أو أبحث عنها. وعلى مر السنين زاد ما يجري كشفه. كانت العروض الأكثر تساهلا متيسرة، وقد نظر المرء إليها بالطبع،

رغم أنه لم يبحث عنها. ثم أعتاد منظر ما يزيد الاستعداد لاستقبال طعام أكثر وضوحا. وفي النهاية يصبح البورنو أقصى إثارة مفترضة. وفي نهاية تغيير وجهة الحاجة وترويض العين والذوق يدعي الباعة الوقحون أنهم يتبعون طلب الزبائن ورغباتهم الحقيقية. بنفس الطريقة الكاذبة والإجرامية يبرر أصحاب الصحف الصفراء وأصحاب الأمر في التلفزيون الحطام الهائل الذي يطعمونه للجماهير. في البدء يروض المرء الأذواق على ما هو تافه ويشجع يوما بعد يوم السطحية ثم يستند المرء إليها وإلى حاجات من يدعى أنهم الزبائن الراشدون، هل هذا صحيح، ألست على حق؟

لا هذا ولا ذاك كما أخشى، قلتُ، رغم أن الخلاف حول الدجاجة والبيضة مثير كما هو دائما، لكننا لن نستطيع أن نسويه.

إنني أطرح على نفسي سؤالا واحدا فقط. إذا كان الإنسان قابلا للتشكيل والتوجيه على هذا النحو كما ترونه، لماذا إذن فيما هو سلبي فقط، لماذا باتجاه الذوق الرديء فقط، المتواضع، البدائية على جميع المستويات؟ إذا كانت الجماهير تترك نفسها تطبع بسهولة وسرور، فيمكن أن يجعلها المرء أيضا تشعر بالحطام كحطام وتكون قابلة لتلقي غذاء نبيل. وترويج هذا عندئذ، لأنه مرغوب جماهيريا، مربح أيضا تماما. بالطبع لن يحدث هذا أبدا، سيبقى الحال هكذا: كلما كانت

الجريدة أكثر بدائية كلما كان عدد النسخ المطبوعة أكبر، كلما كان البرنامج التلفزيوني أكثر غباء كلما زاد عدد المشاهدين. ثمة سؤال يفرض نفسه فقط، لماذا يكون الأمر كذلك، وجوابكم على هذا، معذرة، لا يستطيع أن يقنعني. — لا يقنعني أنا أيضا تماما، قال لوس، وهو مع ذلك أفضل من جوابكم، في كل الأحوال ألطف. يولد الإنسان بالنسبة لكم غبيا، أو على الأقل بالميل الفطري إلى تفضيل ما هو غبي. كمرب لا أستطيع أن أسمح لنفسي بهذا الرأي، ليس قبل التقاعد. أصحح: لا يتعلق الأمر بأنني لا أستطيع أن أتبنى هذا الرأي، لا حق لدي نظرا لخبراتي، أن أمثلكم. في المدرسة أستطيع أن أشهد بين أشياء أخرى أن الإرادة للتعلم موجودة حقا، وأنه يوجد اهتمام بالجديد والجيد. الرغبة في التفكير والتعرف موجودة، وإن لم يكن ذلك في كل ساعة. أتحدث عن التلاميذ، هذا مفهوم، وليس عن البقية. — أفترض أن البقية هم الهيئة التدريسية. هز لوس رأسه وصمت برهة.

لقد دخل مهنة التعليم وهو لا يزال شابا جدا، قال بعد ذلك، والزملاء الأكبر سنا والشيوخ من ذلك الزمن مات بعضهم والبعض الآخر أدخِل في دور العجزة ومنشآت أخرى، حيث يعاني من

الألزهايمر أو تضررت أدمغته نتيجة جلطة في الدماغ حيث يعيش حياة بائسة، أغلب الظن بحفاظات،

وفي ذلك كان هؤلاء الزملاء بصرف النظر عن استثناءات قليلة، قبل وقت قصير فقط كما يبدو له، قد تصرفوا كآلهة وعبّروا بحدة في المؤتمرات التي لا نهاية لها، التي نوقش فيها تنجيح أو تسقيط تلاميذ ضعاف أو فحص درجاتهم. الدرجة التي منحتها يجب أن تبقى! صرخ أغلب المعلمين الذين خوطبوا أكثر مما قال، وأعطى درجاته للتسجيل حتى ثلاثة أرقام بعد الفارزة، لتعتبر بهذا دقيقة دقة بالغة وغير قابلة للرد. وكل ضيقي الأفق هؤلاء، هؤلاء القضاة الذين كانوا يمثلون دور من يتحكم بالمصائر ويوجه سِيَر الحياة، يحدقون أمامهم ببلاهة إن كانوا لا يزالون أحياء، كذلك السياسيون المقتدرون والمحرضون والجعجاعون الآخرون من أيام زمان هم اليوم إما موتى أو منخورون بالتمام. لقد رأى، هو لوس، قبل وقت قصير ما هو مرعب، وذلك في ممر طويل لدار للعجزة تقيم فيه أمه أيضا. قابله رجل صغير يتلمس طريقه، يسحب خلفه غصن صنوبر مثبتا على حبل طوله ثلاثة أمتار، وهذا الشيخ لم يكن في الواقع سوى معلمه للغة الانكليزية فيما مضى، كلب هوائي المزاج ومقرف، كرهه وخافه الجميع. باختصار، بالنسبة لضحايا هؤلاء الناس وأصحاب السلطة ومرتكبي الأفعال المخزية يجب

أن يكون في الواقع عزاء وشعورا بالرضا أن يعلموا بموتهم أو خرفهم، لكن الخدوش لم تلتئم لذلك بصورة أسرع. بالمناسبة إنه نفسه، ليس دون ذنب تماما، إنه أساء أيضا إلى بعض التلاميذ و لم يكن عادلا مع الجميع أبدا، ولكن بما أن خطأه ينقصه سبق الإصرار، فإن تلاميذه السابقون وتلميذاته السابقات، ربما شعروا بالرضا إذا ما التقوه في الشارع بأنف يقطر وسماعة أذن ولا يريدون أن تناله عقوبة أقسى.

ولكن الآن يا سيد كلارين،

ألاحظ أكثر كيف أتحدث باضطراب وقلة أدب، لقد خرجت عن الموضوع ثانية، عن بينولوبي مثلا، أود أن أقول عنها كلمة أخرى. إنكم تظنون بالطبع أنني هربت منها، لأن شبح زوجتي أراد ذلك، ربما أيضا، لأنكم تعتبرونني ضعيف الدافع. أعتقد أن كليهما غير صحيح، الأخير في كل الأحوال حينئذ إذا أردتم أن تسموا الدافع الذي يحتاج إلى أكثر من جسدٍ عطرٍ ضعيفا. إن الأمر يتعلق بهذا "الأكثر"، لقد كان مفقودا، كان فقدانه سيجعل المضاجعة تدنيسا، أعني فعلا ميكانيكيا، رغم أن بينولوبي كانت سترحب بها. أعرف، يستطيع المرء أن يقتصر على الجنس بانسجام مع الآخر مع فقدان العواطف الرابطة، إلا أن هذا يسبب الكآبة أكثر مما يسبب البهجة. وإذن، لكنت قد ارتكبت خطأ ضد نفسي أيضا لو كنت قد قبلت نداء بينولوبي أن

آنس إليها تحت اللحاف ذي النجوم. إفهموني فهما صحيحا، كانت لدي رغبة، ولكن إلى جانب هذه الرغبة شعرت بشيء آخر أثبت أنه أقوى وأنه لذلك محدِد للتصرف، وهو الشعور بفقدان ما هو مشترك، عدم توافق كيمياء الروح وما إلى ذلك، إني آخذ عليكم إيماءكم، إنه يقوي رغبتي في الحديث، سأذهب سريعا إلى غرفتي.

كنت مسرورا للاستراحة، مسرورا لأن أكون متحررا من الحضور الملح لهذا الرجل بضع دقائق. لكني لم أرغب لحظة أن يبقى فوق ويتركني. تساءلت عما إذا كان اهتمامي بالناس الآخرين فاترا دائما، أم أنه يبدو فقط فاترا، قياسا بالاهتمام الكبير الذي أيقظه لوس في نفسي. لم أعرف. تساءلت كيف احتملت زوجته هذا الرجل الصعب من كل منظور. حاولت ألا أطرح مزيدا من الأسئلة وأسترخي. حين لم يعد لوس بعد عشر دقائق لاحظت أن أصابعي غدت قلقة كما لو كنت أكف عن الإدمان.

أعطى لوس لنفسه الحق بأن يجعلني أنتظر. شتمته سرا بأنه نصف عجوز دعي. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والدقيقة الخامسة. إذا لم يعد خلال ثلاث دقائق سأغادر. بعد مرور هذه الفترة أعطيته ثلاث دقائق أخرى. جاء قبل العاشرة والنصف بقليل، شعرت بالارتياح.

جلس وقال، كل شيء يغرق في الضباب، الأضواء في الجهة الأخرى لا ترى. وقفت أمام النافذة مثل الأعمى، ساعدتني لا جدوى الرؤية في فهم أن المتذكر لا يحتاج إلى العينين أبدا. حتى المعرفة البسيطة تحتاج بين حين وآخر وقتا حتى تتيسر لنا، أليس كذلك؟ بالمناسبة ليس صحيحا بالطبع أن إيماءك هو الذي أغراني بالحديث، إنك في الواقع لا تومئ إلا نادرا. أعتقد أنني أشرت في وقت ما كيف يسير الأمر: فقدت مع زوجتي لغتي أيضا، على الأقل الأنس الذي تنتسب إليه اللغة، والذي تلعب فيه الدور الرئيس. لقد انسحبت، عن الأصدقاء أيضا، و لم أعد أتحدث عمليا، وخاصة عن الحياة الخاصة. لو لم تكن عندي المدرسة التي ترغمني على الحديث لنما الفطر على حبالي الصوتية. حين جلستم إلي مساء أمس، إعذروني، إنتابني خوف من أنكم يمكن أن تبدأوا معي حديثا، خوف كبير لدرجة أنني تمنيت أن يكون لي قناع تخفٍ لأهرب منكم ولا يتوجب علي الحديث معكم. لكنكم صياد طيور، مثابر فوق ذلك، إستدرجتموني للخروج من الدغل، أصطدتموني، وجعلتموني طيّعا حتى أنني بدأت بالغناء، مرغما على الحماسة مثل طير صمت شتاء بأطوله. هذا ما يتعلق بحاجتي الملحة إلى الإفضاء، أرجو أن تسامحوني.

علي أنا أن أطلب المسامحة، قلت، لقد فرضت نفسي عليكم وأوقعت الاضطراب في دوائركم. إنني أعقد صلات بسهولة كبيرة، وكإنسان منفتح أقع فيما يبدو في خطر عدم ملاحظة أن الآخرين مختلفون. أشعر بالراحة بين الناس ولا أحب أن أكون وحيدا، الوجل من البشر كلمة غريبة علي. إنه لغز بالنسبة لي كيف يعيش المرء وكيف هي الحياة دون علاقات. حسنا، لا تزال لديكم لحسن الحظ المدرسة، ولكن ماذا يحدث في أوقات الفراغ؟ ماذا تفعلون في العطلة؟ هل تسافرون أحيانا على الأقل؟ – أتفق مع أوفيد، قال لوس،

Bene qui latuit, bene vixit.

– عليكم أن تترجموا لي هذا، قلت، إنني أفهم للأسف <بينا> فقط، لم أكن جيدا في اللاتينية. — من كان متخفيا جيدا، عاش جيدا، قال لوس، ولكن لا فكرة لدى حيوان القطيع عن مثل هذه الحقيقة. بالمناسبة، لست تعيسا وأنا وحيد، فأنا موحد من الداخل، ولكن لندع هذا. وإذن، ماذا أفعل في أوقات فراغي؟ ستندهشون، إنني أفعل ما كنت أنويه منذ ولادتي، لا شيء. إنني لا أنجح دائما في ذلك بالطبع، لكنني أتمرن وأتمرن وأنا في الطريق إلى ذلك، أقول لنفسي وأترك للناشطين أن يقاوموا قوة الجاذبية. — كيف يبدو التعطل بشكل ملموس، وكيف يستطيع المرء أن يتدرب عليه؟ سألتُ لوس. — حسنا، قال، أتدرب تعني هنا كما في كل مكان: أن أحاول من جديد

دائما حتى أنجح. إفترضوا أنكم مضطجعون على الأريكة ظهر يوم سبت، وتضعون نصب عينيكم أن تتعلموا البقاء ساعتين مضطجعين، ساكنين ولكن دون أن تناموا. تسمعون جارة تكنس بالمكنسة الكهربائية أو شخصا يقص النجيل. بدلا من أن تفكروا الآن في أشياء عليكم القيام بها، عليكم الآن أن تراقبوا العنكبوت الذي يجلس على سقف الغرفة دون حركة، ولا تستسلموا بأية حال للرغبة في إبعاده. يرن تلفونكم الآن. كمبتدئ تنهضون قافزين وتتناولون السماعة. سيكون هذا حرجا إن لم تكونوا قد تعلمتم من إخفاقكم. تأملوا في داخلكم، تابعوا التدريب حتى تحصلوا على حرية أن لا تردوا على المؤثرات الخارجية التي تغريكم بفعل شيء.

أفهم، قلت، ولكن ما نفع كل هذا، ما هو معنى التدريب؟ – ربما تختبرون طيلة ساعتين كيف يشعر المرء حين لا يكون عبدا، قال لوس، كم سيحل السلام في داخلكم إذا فقدتم برهة من الزمن الشعورَ الدائم بأنه يتوجب عليكم أن تفعلوا شيئا. — لكل شأنه، أجبتُ، إنني أشعر برضا أكبر حين أفعل شيئا، حتى لو كان ثمة "يجب " خلف عملي وليس الرغبة الشخصية. — نعم، نعم، قال لوس، في الحركة بركة، هكذا يقول المثل الشعبي أيضا، هذا ما قلتُه، كلا، ما لقنته أنا أيضا لنفسي، لأقنعها أن تطير إلى تساكينتوس. لقد سألتموني عن تلك

الرحلة أليس كذلك، لقد قمت بواحدة، ثمانية أيام في تساكينتوس في سبتمبر من العام الماضي، وأثبت إعتداد المثل في ذلك أنه ظلم صارخ. كانت عطلتي خراء. إنني أستخدم الكلمة واعيا، إنها الكلمة المبتذلة الوحيدة التي سمعتها من فم زوجتي على الإطلاق وذلك أيضا مرة واحدة فقط. لم تكن تلعن أبدا، لم تحتج أبدا تقريبا إلى تعابير القوة، ولكن من الخطأ أن تفكروا الآن أنها كانت عاقلة أو ورعة، كانت فقط مهذبة، ولو لم يكن وقع الكلمة مادونيا لقلت: نقية. وقفت ذات صباح أمام مرآة غرفة النوم عارية، وكانت تعتقد فيما يبدو أن الباب المؤدي إلى الغرفة التي كنت أجلس فيها مغلق ولا أستطيع أن أسمعها. من المعروف أنه توجد في الجسد الأنثوي مناطق معينة، تعتبر مناطق مشكلة لأنها تمتلك أستعدادا خاصا لاكتناز الشحم. كانت زوجتي في هذا الموضع أو ذاك أكثر امتلاءً مما كانت في الماضي، وقد كانت ترفض هذه المناطق، بينما كنت أنا أحبها. لم تصدقني رغم أنني حاولت أن أشعرها بذلك. كان غير مريح لها أن تُلمس في مثل هذه المواضع،

كانت تكاد تنكمش متراجعة، باختصار، وقفت ذات صباح أمام المرآة في غرفة النوم وقالت بصوت عال تقريبا: أبدو مثل الخراء.

نظر لوس من فوقي بعيدا، غائب الذهن، كما لو كان ينصت إلى هذه العبارة .

حين بدا حاضر الذهن ثانية، تبينت ذلك في أنه تناول منديله ليمسح به خيوطا صغيرة من العرق زحفت باتجاه حاجبيه-، ذكرته بتساكينتوس وسألته لماذا لم تكن عطلته هناك سارة. — بدأت الصعوبة خلال الرحلة إلى هناك، قال، لأن السيدة التي جلست إلى جانبه أزعجته بأشياء شخصية حميمة. روت له أنها تطلقت قبل وقت قصير بعد زواج واحد وعشرين عاما وهي الآن بصدد تعلم التخلي وبلوغ النضج الروحي الذي يجعلها جديرة بما عاشته، إلى آخره. ألا يرى هو الآخر أن كل نهاية تعني في نفس الوقت بداية جديدة وتخفي طبقا لذلك الفرصة للعثور على آفاق جديدة أو ناس جدد، إلى آخره. تكلم هو، لوس، أقل ما يمكن آملا أن يؤدي هذا إلى نضوب سيل الكلام لديها وهو ما لم ينجح. ثمة ناس لا يملكون الشعور بالمسافة، سواء كانت داخلية أو حتى أحيانا خارجية. حين يتحدث المرء بالأخيرة واقفا، يقتربون أكثر فأكثر، ولا يكاد المرء يستعيد المسافة الضرورية وهي خمسين سنتمترا تقريبا حتى يقصرونها ثانية من خلال خطوة إلى الأمام إلى عشرين سنتمترا لا تطاق. كان لديه زميل دفعه في كل محادثة عدة أمتار إلى الوراء في غرفة المعلمين. ولكن مهما يكن، غابت

المرأة بعد وصوله إلى تساكينتوس عن نظره وركب مرهقا سيارة تاكسي حضرت بطلب من الفندق لنقله. ينقص شخص آخر، ينزل في نفس الفندق، قال السائق. بعد انتظار طويل صعدت سيدة نحيلة وسببت له آلاما جديدة إذ أنها بعد انطلاق السيارة بوقت قصير تحدثت معه بحميمية وبدأت تحدثه عن طلاقها. إنه الآن متأكد تقريبا أن مكتب السفر قد أخفى عنه أي مجموعة تسافر إلى تساكينتوس. عذبته المرأة أيضا بعمليتين أو ثلاث في القدم وأطلعته على أنها كانت حتى إحالتها على التقاعد منذ وقت قصير موظفة في الشرطة الجنائية. حين وصل الفندق حصل ما أزعجه. كان قد حجز غرفة كبيرة بشرفة تطل على البحر، عارفا في أي حجيرة مظلمة بحجم خزانة الملابس اعتاد المرء أن يحشر فيها مسافرا وحيدا. لقد خصصت له مثل هذه الغرفة الآن بالفعل، وبفضل مقاومة شديدة فقط نال حقه. ثم قام باستكشاف القرية، إنها كما ورد في الدليل السياحي قرية صيادين هادئة، في الحقيقة ليست سوى شارع وحيد طويل صاخب بعدد لا يحصى من دور الضيافة والمراقص والبارات. جلس في المساء على السرير الكبير وسأل نفسه، لماذا هو هنا. شعر أن وجوده هنا غير ضروري ولاحظ في نفس الوقت أن عدم ضرورة تواجده في البيت دفعه إلى هنا. في الليل نبحت الكلاب طيلة ساعات، وفي الصباح

حين تناول إفطاره وقفت موظفة الشرطة الجنائية أمامه فجأة، صرخت أهلا وجلست إلى مائدته مثرثرة. تكرر الرعب في المساء ثانية. جلس في واحدة من دور الضيافة المائة خارج البناية بالطبع ولأول مرة مسترخيا، رغم أن موسيقى زوربا التي سُمِعت دون انقطاع وروائح مسوحات الأبدان للأزواج الصامتين في غالبيتهم حوله قد أزعجته قليلا. حين رآها قادمة، موظفة الشرطة الجنائية، ترك منديل الطعام يسقط وغاص تحت المائدة ليختفي، إلا أنها، الموظفة، كانت تقف أمامه حين ظهر. سألت هذه المرة على الأقل إذا كان يسمح لها أن تجلس إلى مائدته. بدل أن يقول *لا* قال *رجاء* وكره في هذا أبويه فليس ما هو أصعب من التخلص من التربية الحسنة.

شرب لوس، نظر إلي وسأل، ما إذا كان حديثه يهمني وما إذا كنت، إن كان الجواب نفيا، أملك الشجاعة لقول ذلك. أجبت صادقا أنه يهمني، أن عليه ألا يقلق ويتابع حديثه ببساطة. — حسنا، قال لوس، سأحاول مع ذلك، ألا أتيه. أقول هذا فقط كي لا يبدو الأمر وكأنني عدو للنساء، أن موظفة بيرن لم تكن ببساطة قبيحة فقط وإنما أيضا عديمة الحساسية. كانت لغتها فجة، وكان صوتها عاليا وحديثها ثرثرة. ما عوضني قليلا أنني لم أسمع منها قضية جرمية آسرة. قالت جوابا على سؤالي بهذا الصدد فقط إنها كانت في الخدمة الداخلية أكثر

مما هي في الجبهة. رغم ذلك بدا أنها قادرة على الحدس، فقد نجحت في الأيام التالية أن تتعقب أثري عمليا في كل مكان. حين كنت أجد على الشاطئ كرسيا للاستلقاء محاطا من اليسار واليمين والوراء والأمام بكراس مشغولة، رغم أنني شعرت بالضيق ولكن كنت على الأقل محتجبا. وهكذا بقيت أحيانا غير مكتشف، إلا أنني لم أستطع أن أستمتع باسترخاء. كنت أجلس فقط على الكرسي وأحفر من وقت لآخر بقدمي في الرمل. وتحسن مزاجي المنقبض بالتصور وحده أن جميع الأجساد حولي ستتحول ذات يوم إلى هباء. إعتكفت أكثر فأكثر في غرفتي أو في الشرفة، ولكن ظهر بسرعة أن الشرفة لا تصلح حقا للاستخدام. جلست بعد الظهر هناك فرأيت أمامي وتحتي — على مسافة لا تكاد تصل العشرين مترا — نساء مختلفات عاريات الصدور في الرمل، بعضهن مستلق والبعض جالس، وأحيانا كانت واحدة ترفع بصرها إلي، تلكز أخرى فترفع بصرها بدورها، و لم يكن من الصعب أن أعرف من ضحكهن ماذا تعتبراني. ألغيت الشرفة، و لم يُتَح لي حتى في وقت متأخر من المساء أن أجلس هناك بهدوء وأشرب كأسا من الأوزو، ففي الشرفة المجاورة كان زوجان ألمانيان يلعبان لعبة،

أظنها الورق، كان على المرء فيها كما يبدو أن يقول على الدوام ماو أو ماو ماو، قيل وصُرخ ماو أو ماو ماو طيلة ساعات. أضنتني العطلة، أفترض أن الحلم الذي حلمت به في الليلة التي سبقت الرحلة والذي لا أتذكر منه سوى الصورة الرئيسة، أراد أن يعبر رمزيا عن خلاصة أيامي في تساكينتوس. في هذا الحلم رأيت نفسي في هيئة غريبة، وذلك كعظام مقروضة. لا شيء غير هيكل عظمي، أمر مفهوم، وإنما كعظم من قطعة واحدة له حدبتين في الأسفل يستطيع أن يقفز عليهما عند الضرورة، ولكن إلى الوراء فقط. غريب، أليس كذلك؟ كان علي أنا بالذات كرجل ضخم أن أرى نفسي عظما. ربما أراد الحلم أن يقول لي ببساطة أنني يجب أن أتوقف عن التهام الطعام. عليك أن تعرف، زاد وزني في الأسابيع الإثني عشر الأولى بعد وفاة زوجتي حوالي ثماني كيلوات. لم أعد أرغب في شرب النبيذ، بدلا من ذلك أكلت بشراهة وأصبحت أثقل مما يجب. أخجل قليلا من الحديث عن هذا الإدمان، حيث يقال إن الناس الأغبياء يلتهمون الطعام والأذكياء يشربون. هل تتذكرون العاصفة؟

عاصفة ليلة الأمس؟

طبعا، كيف خطرت لكم الآن؟ – معذرة، قال لوس، أعني العاصفة في هايد بارك، أعني البرق المميت، أردت أن أقول إن زوجتي تغيرت

بعد هذه الضربة القاسية، وقد كانت أحدى العلامات على هذا في تناول الأشياء الحلوة. فعلت ذلك سرا وبكميات كبيرة، إكتشفتُ ذلك صدفة. علما منها بحبي لأقلام الرصاص ذات النوعية الجيدة أهدتني زوجتي مبراة من النحاس الأصفر، وذات يوم، كنت أقف منحنيا على كيس القمامة في المطبخ أهم ببري قلم رصاص، سقطت المبراة من يدي. اختفت هكذا دون أثر في القمامة حتى كان علي أن أفرغ الكيس في كيس آخر،

حيث لفت نظري العدد الكبير من ورق الشيكولاته المكورة. بشكل ما أثر في هذا الاكتشاف، وبشكل ما آلمني أن أرى زوجتي تمضي على هذا النحو في طرق سرية. كان لا بد لها أن تعرف أنني كنت سأتيح لها من الحلوى أكثر مما تستطيع أن تأكل. بالطبع لم أقل شيئا، لم أرد بأي حال من الأحوال أن تشعر بالخجل مثل طفل ضبط وهو يقضم الحلوى. لم أذكر أيضا قصاصة ورق عثرت عليها لدى البحث، رغم أنني وددت لو أعرف المزيد عن معنى الجملة التي كانت قد كتبتها عليها بخط يد سريع: *لا أريد سماء تبقى ملتصقة بزجاج النافذة*. صورة نادرة، أليس كذلك؟ وهكذا فقد تغيرت زوجتي قليلا بعد الحادث في هايد بارك، وكان الأقرب إلى فهمي هو أنها، هي التي لم تكن تعاني من أية مشكلة مع العواصف سابقا، بدأت الآن تتصبب عرقا وترتعد

لدى سماع رعد بعيد. و لم يكن ممكنا للأسف أن أطمئنها، أن آخذها بين ذراعي، لقد شعرت بالخوف في لحظات الخوف من أي لمس أيضا، حتى بدا لي الأمر تقريبا وكأنها تعتبرني جزءا من الشيء المهدد. كانت تخجل بعد ذلك، بعد ذلك كانت تتركني أهون عليها الأمر، وقد روت لي ذات مرة أنها لم تعد تستطيع استخدام المصعد دون أن ينتابها الخوف من اقتراب أمها التي تسكن في الطابق الخامس من بناية سكنية منها. كان لدى زوجتي دائما وحدات وحساسيات معينة وبعد ما شهدته في لندن ظهرت فقط بوضوح أكبر. كان جسدها، يجب أن تعرف، عصا وحيدة لاكتشاف الماء، تتأثر بمصادر الإزعاج من كل الأنواع بحساسية كبيرة. غيّرنا منزلنا في السنوات الأولى من زواجنا مرتين في منطقة إقامتنا في زيوريخ وغيرنا في كل منهما مكان السرير أكثر من مرة لأن زوجتي شعرت بتكدر صحتها مرة بسبب عروق الماء ومرة بسبب حقول مغناطيسية ذات ذبذبات واطئة.

تضنيها أيضا الرياح الدافئة التي تهب من جبال الألب والبدر في تمامه. رغم كل ذلك، إنكم تشكلون صورة خاطئة إذا اعتبرتم زوجتي مريضة، مفرطة الحساسية أو ضعيفة الأعصاب. كانت رقيقة الأعصاب وليست ضعيفة الأعصاب، وأنها لم تكن مفرطة الحساسية فهو ما أثبتته بشكل كاف فيما بعد، حين مرضت بالفعل وكان عليها

أن تتوقع الأسوأ. ذاكرتي تخذلني، هل تحدثت عن ذلك أمس، أعني عن هذه الإصابة بالمرض؟

تحدثت عن ورم، ولكن تلميحا فقط، قلت أيضا إن هذا الورم استؤصل بنجاح وأن شعر زوجتك الأشقر الذي حلق بسبب العملية الجراحية نما بسرعة. — كل التقدير، قال لوس، كان يمكن أن تكونوا كذابا موهوبا. — كيف خطر لكم هذا؟ لا أدري ما تعنون. — كان هذا مزحة فقط، قال لوس، تلميح إلى كوينتيليان فقط، إنه يرى أن الكذابين يحتاجون إلى ذاكرة فذة. حسنا، باختصار، بعد حوالي عشرة أشهر من حادث هايدبارك بدأت زوجتي تعاني من صداع ليلي. وأحيانا كانت تتقيأ قبل الإفطار. أخذتُ الأخير فقط مأخذ الجد، ألححتُ عليها أن تقوم باختبار للحمل، وأملتُ في طفل. ولكن لم ينتهِ ذلك إلى شيء، أخفق التحقق المتأخر لرغبتنا. ذات صباح قالت لي زوجتي أنها تراني بشكل مضبب. أتصلت بصاحب عملها رغم مقاومتها واخبرته بأنها مريضة. فقد كانت، يبدو أنني ذكرت ذلك سابقا، تعمل في مصنع للمجوهرات، في معمل للحلي، حيث ترعى كموظفة مختصة قسم حلقات الزواج. هذا عرضا. ثم حين ظهر في نصف رأسها الأيسر إحساس بالصمم ذهبت زوجتي إلى الطبيب. أوعز بفحص فوري. جاء التشخيص سريعا ومعه رعبي. أستروسيتوم.

ورم في الخلايا الساندة ذات الشكل النجمي للدماغ. بقيت زوجتي مرتخية بشكل مرعب،
حتى أنني اعتقدت أنها لا تدرك حجم الخطر الذي هي فيه. استدعت شخصا يدوزن البيانو كما لو كان هذا هو الأمر الأكثر أهمية الآن. جاء شاب أشقر ودوزن البيانو الذي لم تكن تعزف عليه إلا نادرا. بعد يومين، حين عدت من المدرسة — كانت زوجتي لا تزال عند الطبيب –، استمعت إلى مسجل التلفون، سمعت صوت الشاب الأشقر، إسمه روسي، الذي قال ما يلي: أيتها السيدة لوس، أريد أن أقبل ساقيك. — لم يقل أكثر من ذلك، كنت مندهشا إلى حد ما، غير أنني كنت قلقا أيضا. لا بد أن الصبي قد تنسم في سلوك زوجتي ما دفعه إلى جرأته. رغم أن زوجتي كانت قدر تعلق الأمر بتصرفها إزاء الرجال الآخرين متحفظة جدا، نفورا تقريبا، لم أستطع أبدا أن ألاحظ أنها إستخدمت مثل أغلب النساء إشارات رقيقة. وهكذا كنت قلقا، لأنني كنت قد قرأت مرة أن أورام الدماغ يمكن أن تؤدي أيضا إلى تغيرات في الشخصية، وبدا هنا تغير كهذا، فيما إذا كانت زوجتي قد أعطت للرجل الشاب فعلا إشارة تشجيع. قلت لها حين عادت إلى البيت، ثمة خبر لها على مسجل التلفون. سمعته وضحكت من كل قلبها عاليا. سألتها، ألم تصدم، ألا ينبغي وقف الصبي عند حده؟ أوه،

كلا، قالت، أتدري، كنت سأشعر قبل وقت قصير أن محاولته للتقرب قلة حياء، ولكن تبدو لي الآن غير مؤذية ولطيفة، بل ومرحة. صورة الذبذبات المغناطيسية لدماغي ترغمني أن أفكر في نهايتي القريبة. ومن الغريب أنني أقارن كل شيء، كل شيء تقريبا بهذه النهاية وأحاول أن أراه منها، يبدو لي مرحا، هل تفهم، إنه يفقد أهميته. — حين أفهمت زوجتي أنني أعرف ما تعني قالت شيئا لم أفهمه ولا أفهمه اليوم أيضا. قالت أنها تمنت كثيرا ودون جدوى أن لا أفهمها دائما. رجوتها أن توضح لي الجملة فرفضت. باختصار،

أردت في الواقع أن أقول فقط إن خطورة وضع زوجتي لم يَخفَ عليها، عكس ظني. وقد بقيتْ مع ذلك مرحة، بينما كدتُ أنا أجنُّ من الخوف والقلق والعجز. عزّتني هي بدلا من العكس. روت لي مثلا أنها سمعت منذ فترة طويلة برنامجا إذاعيا تحدث عن شعب قديم، عن تقليد غريب لديه وهو استقبال المواليد الجدد بالنواح وتعداد جميع الشرور التي تنتظرهم. أما الموتى فقد دفنهم هذا الشعب بفرح ومزاح لأنهم نجوا أخيرا من آلام الحياة. ألا تعجبني أنا أيضا هذه العادة، سألتني زوجتي. كتمتُ عنها أنني أعرف عادةَ شعبِ التراكر وقلتُ: نعم، بشكل ما، ومع ذلك يجعلني تصور الرقص الفرح حول قبري سوداويا قليلا. — لا أشعر أنا بذلك، قالت، سيفرحني أن أراك

ترقص. — ستشهدين ذلك حالما تكونين قد شفيت، قلت لها، سأرقص. — معي؟ سألت. معك، قلت. لكننا لم نرقص، قال لوس، رقصنا معا مرة واحدة فقط، في حفلة زواجنا، ثم لم نرقص أبدا.

شاركت حين كنت في السابعة عشرة من عمري بدورة لتعلم الرقص، في المساء الأول قالت لي فتاة تفوح منها رائحة صابون الخزامى أن علي ألا أحجل. في نهاية المساء الثالث جرى ما يسمى باختيار النساء، إنتظرت أن أُختار دون جدوى، وبقيت جالسا كشخص فائض. شعرت أنني مثل عجل كسيح في سوق الماشية، لم أشك أنني لن أجد أبدا صديقة ناهيك عن زوجة. تركت دورة الرقص و لم أرقص أبدا حتى الزفاف، وهنا أيضا وقتا قصيرا فقط وفي نفس الوقت ساخرا من نفسي. إنها تستطيع أن تذهب للرقص في أي وقت تشاء إذا رغبت في ذلك، قلت لها أحيانا فيما بعد، وقد أوضحت دائما أن الرقص لا يعني لها شيئا. وفي ذلك كنت قد اعتقدت حين تعرفت عليها أنها يحتمل أن تكون راقصة باليه، فقد بدت هكذا بقوامها الرشيق،

راقصة باليه مع كلب قابلتني في طريق في الحقل. كنت أنا أيضا بصورة استثنائية مع كلب، كلب قصير القوائم لمؤجرة مترلي التي رجتني أن أهتم به طيلة يومين لأنها أرادت أن تسافر إلى الألزاس. كان

الكلب كلبةً إسمها لارا وكانت مستعدة للإخصاب. لذلك أعطتني المؤجرة أيضا سبريه خاصا للتخويف مع ملاحظة أن أرش القسم الخلفي من لارا قبل أن أخرج معها كل مرة. بدا لي هذا مبالغا فيه وغير لطيف أيضا، فلم ألتزم به، وقد أثبت عدم الإلتزام هذا أنه كان مصيريا. كان مساء مضيئا من مارس، سارت لارا أمامي متباطئة، كنت قد حررتها من الحبل. هنا قابلتني إمرأة شابة مع كلب. حين كنا على مسافة عشرين مترا من بعضنا وقفت لارا. الكلب المربوط بالحبل وقف أيضا. ثم سار كل شيء بسرعة كبيرة. بدفعة واحدة حرر الكلب نفسه وهجم على لارا. ليو، ليو! صاحت المرأة التي ستكون زوجتي مستقبلا، لكن ليو لم يكن مستعدا للاستماع، كان منشغلا بالتشمم، وأعربت لارا عن موافقتها بوضع ذيلها جانبا، حيث صعد في الحال. كان الوقت متأخرا للتدخل. مرتبكين وخجلين — أكاد أريد القول موحدين في الحياء — وقف كلانا جانبا، وعدا نتف من جمل الاعتذار لم نعرف ما نقول. ولكن حصل الآن تعقيد ليس نادرا كما قيل لي. حاول الكلب بعد الجماع أن ينزل دون جدوى، بقي في لارا كما في منجلة، دار الإثنان برهة من الزمن مرتبطين في دائرة. ثم وضع ليو ساقا خلفية فوق ظهر لارا وأدار جسمه ملتفا فوقف الإثنان وهما لا يزالان ملتحمين واحدا عكس الآخر، وبدأ كل منهما يسحب

نفسه في اتجاهه وهو يعوي من الألم. عبثا، لم ينفصلا عن بعضهما. كان المشهد مربكا، إحمرت المرأة الشابة وتغير لونها و لم أجد كلمة تزيل التشنج. بعد ربع ساعة، الأطول في حياتي، أوضحت زوجتي المقبلة،

يجب أن يفعل المرء شيئا وإلا فإن الدراما لن تنتهي. نعم، ولكن ماذا؟ سألت، وبدلا من أن تجيب تقدمت إلى ليو من الأمام، لم يكن كبيرا ولا ثقيلا، أمسكت به بكلتا يديها من جانبيه، رفعته برفق قليلا وسحبته بحركة دوران خفيفة. بدا أن الحاجز قد انفك، نجح الفصل، وبدأ كل من الكلبين بلعق أعضائه. هكذا تعرفنا على بعضنا. لا يتخيل ما كان سيحدث لو أني أستخدمت السبري وفقا للتكليف قبل خروجي للنزهة. لا شيء. لَكنا قد تقابلنا في طريق الحقل وتبادلنا التحية، ولكان ليو، لو حدث هذا، قد شم لارا لحظة، وانصرف عنها مشمئزا، ثم سحب وهو يجذب الحبل إمرأةَ حياتي من مجال نظري إلى الأبد. حمدا لله أن الأمر سار بشكل مختلف. حمدا لله أن المرأة الشابة لم تبتعد بعد الحادث ببساطة وإنما قلقت. الآن نستطيع فقط أن نأمل ألا تكون للحادثة الطبيعية عواقب، قالت لي. حادثة طبيعية! قالت ذلك بالفعل، يبقى هذا في الذاكرة، وأصبح واضحا لدي في الحال: إذا ما وصفت إمرأة شابة على هذا النحو الجماع بأنه حادثة طبيعية، فإنها

إنسان خاص. سألتها عما إذا كان علي أن أبلغها عن العواقب المحتملة. رجتني أن أفعل وأعطتني رقم تلفونها. ذكرتْ إسمها وذكرتُ إسمي، كانت مصافحتها مريحة. لا يمكن الحديث عن حب من النظرة الأولى، لم أكن أبدا سريع الإشتعال. أحببنا بعضنا ببطء بعد أن بدأنا نلتقي بانتظام، وقد حان الوقت الآن أن أصمت برهة وأعطي لنفسي الفرصة لأثبت أنني مستمع جيد مثلكم يا سيد كلارين. تحدثوا! حدثوني عن نفسكم، أفشوا لي بحق السماء شيئا!

كان يمكن أن أفكر أنه لا يدعني أتكلم، إنه يتحدث محموما ثم يتهمني بأنني أصمت. لكني لم أفكر في هذا، لم أحس به هكذا. تذكرت أمي التي كثيرا ما قرأت لي من حكايات الأخوين غريم. كنت يومذاك أستطيع أن أصغي، مشاركا، مسحورا — كم ضَمُرت هذه القدرة مع مرور الزمن، لاحظت هذا الآن لأنها عادت دفعة واحدة كما لو كانت قد اوقظت من جديد من خلال الحضور القوي للراوي لوس. لم تكن لدي الرغبة أبدا في أن أتكلم رغم أنني أحب الحديث عادة ولا أحس بعدم الراحة في احتلال مكان الصدارة بين نظرائي. لكني الآن كما قلت، لا أحس بحاجة إلى الكلام، ربما لأنني خفت أن أخيب اهتمام لوس غير المتوقع. بدا أنه دفعني إلى حد جعلني أرى نفسي وحياتي باهتة تقريبا. نظر إلي. لو كنت مكانكم لفقدت الصبر

معي، قال. — من كان مأسورا فإنه لا يحتاج إلى صبر، أجبت. ما يحتاج مني إلى قليل من الصبر هو فقط كونه لا يكاد يروي شيئا حتى النهاية ويتركني في جهل، ما إذا كانت لارا قد حملت أم لا.

– صحيح، إنني لا أصل إلى نهاية، قال لوس، و لم تحمل لارا للأسف.

— لماذا للأسف؟ سألتُ. — لا أريد أن أوضح هذا الآن، قال، دوركم الآن للكلام. — إنه ليس سهلا أن يتكلم المرء بأمر، قلتُ، وفيما عدا هذا لا أعرف ما الذي يرغب سماعه مني. ملأ لوس كأسينا. أحب أن أعرض عليكم التحدث بصيغة الـــ أنت، قال، أعتقد أنه لم يعد ضروريا أن نحتفظ من خلال الصيغة الرسمية بالمسافة بيننا. كان طلب لوس غير متوقع، فلم أستطع أن أستجيب في الحال. ليس هذا ضروريا، قال، كان الأمر مجرد مزاج. — يسرني هذا، قلت بسرعة، رغم أن هذا لم يكن مطابقا للحقيقة. في الحقيقة كنت مسرورا للمسافة التي يريد لوس إزالتها الآن. حقل جاذبيته، إذا حق لي أن أعبر على هذا النحو، يمارس الآن علي قوة كافية. — إسمي توماس، قلت. تردد لوس لحظة ثم قال: هذا ما خمنته. — خمنته؟ لماذا إذن؟ – حسنا، قال، رأيت ليلة أمس لافتة الإسم على باب بيتك. ت. كلارين،

وحاولت في طريق العودة أن أعد الأسماء التي تبدأ بحرف التاء، وجدت ثمانية فقط، بدا لي أن توماس الأكثر مناسبة لك. بالمناسبة ثمة ما يربطنا، أنا أدعى مثلكم، أعني مثلك. — توماس؟ - نعم، توماس. قبل أن أستطيع أن أعلق على هذه المصادفة قال لوس: لفت نظره لدى مغادرته شيء آخر. كانت لافتة إسمي مع لافتة أخرى على الإطار الأيسر لباب البيت. وفي الإطار الأيمن رأى لافتة ثالثة من النحاس الأصفر، إخضّر لونها من القدم، لكنها لا تزال مقروءة. كما أعرف بالتأكيد، كتب عليها تاسو، وهذا الإسم المعروف أثار استغرابه الشديد. — إنكم لغز بالنسبة لي، إنك لغز بالنسبة لي، كيف تستطيع أن تشرب بهذه الكثرة كما فعلت بالأمس وتبقى رغم ذلك حاد البصر؟ - حجمه يسمح له بالكثير، أجاب، وما إذا كنت لا أريد أن أقول له من هو هذا التاسو. — كان أفضل أصدقائي، قلت، أقمنا كطلاب في غرف متجاورة، لم يعد على قيد الحياة. كان البيت في أغرا ملكا له، مات في سن السادسة والعشرين هناك.

على العكس مني تعرف كيف تختصر، قال لوس، لذلك فقط، ينقص اللحم فوق العظام. مزيدا من اللحم، توماس، إذا سمحت لي أن ألتمسك! ألا يحتمل أن هذا التاسو كان قريبا للشاعر المجنون المعروف؟ - هذا سؤال كثيرا ما يطرح، وكان قد اعتاد أن يقول

بتواضع، إنه لا يَعرف. كان ينحدر من المنطقة المحيطة بنابولي، توفي والداه في حادث سيارة حين كان في الخامسة من عمره. زرعه المرء في سويسرا، أرسل إلى بيرن، إلى عمةٍ له لم يكن لها أطفال، كانت متزوجة من مهندس سويسري إسمه اينغل، سقط في بئر مصعد حين كان تاسو في الثالثة عشرة. ترك لزوجته ثروة طيبة وكذلك بيتا في أغرا، حيث عاشت هناك في عزلة حين بدأ تاسو الدراسة.

بعد سنتين ماتت هي الأخرى، أعتقد بسرطان الغدد اللمفية، وانتقلت ملكية البيت إلى تاسو. هل هذا مناسب، توماس، أم أن علي أن أكون أكثر إسهابا؟ – لقد حدثت وفيات كثيرة، قال لوس، وفيما عدا هذا فهو مناسب، تحدث! — حسنا، وهكذا، في الطابق الأعلى من بيت ضخم كانت تملكه أرملة خباز، وجدتُ في بداية الدراسة تماما غرفة صغيرة ورخيصة. كان علي أن أشترك في دورة المياه مع مستأجري الغرفتين الأخريين، وكان أحدهما تاسو الذي لم أكن أعرفه. كان يسكن منذ وقت طويل هنا، كان يدرس التاريخ واللغة الأنكليزية في الفصل الرابع، وأن نكون قد أصبحنا صديقين حميمين أمر يقترب من الأعجوبة. كان النقيض مني تماما، في المظهر في كل الأحوال، ولكنني أتحدث عن الجوهر. هذا الذي يعتبر جنوبيا، التهور، التصرف المتساهل والمسترخي، الرغبة في التواصل والكلام، وربما أيضا

السطحية: كل هذا كان يتمثل في الواقع فيّ أنا، بينما كان تاسو جادا وثقيل الدم، دقيقا وجذريا. كان يملك ما ينقصني والعكس صحيح. تستطيع أن تتصور كم كانت صداقتنا مثيرة، ولكن أيضا مليئة بالتوتر. كنا قريبين من بعضنا لدرجة أننا كنا نستطيع أن نعترف لبعضنا بمشاعر الكراهية المتبادلة التي كنا نشعر بها بين حين وآخر. كنت أنوي دائما على سبيل المثال أن أنهض قبله في الصباح، لكنني لم أفلح في ذلك أبدا وكرهته بسبب هزائمي. بعد ذلك بوقت طويل فقط اعتدت على النهوض مبكرا وتعلمت أن ألتزم بالنظام. كراهية جيوفاني، كان يدعى جيوفاني، انسحبت على حياتي العاطفية أو كما قال، على استهلاكي القسري للنساء، الذي كان يعاني منه بالطبع، حيث كان لا يفصل بين غرفتينا سوى جدار. لكن ليس الأصوات، قال، هي ما أثار فيه الكراهية، ولا الحسد أيضا،

وإنما الأرجح هو أن أفعالي الطائشة ترغمه على الإشفاق على النساء. ففي رأيه أن النساء لا يستحقن ولا يحتملن أن يُرمى بهن. كان يعني يُرمى بهن حرفيا. رغم كل الخلافات لم تكن صداقتنا مهددة في أي وقت من الأوقات. مرة طرق تاسو بابي، بعد منتصف الليل بوقت طويل ونادى بصوت واطئ عما إذا كنت لا أزال يقظا. قليلا، قلت، أدخل. — كان يمسك بكتاب في يديه وقال محرجا، وجد لنا هنا جملة،

وهي: كن لصديقك وسادة غير مريحة. هنا قفزت من السرير وفتحت زجاجة جيانتي، وكانت صداقتنا، لِنقُل قد عُرِّفَت.

خطأ، قال لوس، إنها في الأصل سرير ميدان صلب وليس وسادة غير مريحة. — أشكرك بأدب على الملاحظة، قلت، رغم أن المعنى يبقى واحدا. — معذرة قال، لقد جمح بي علم اللغة. — لا بأس عليك ومهما يكن، قلت، بعد وقت قصير وقع تاسو، وذلك للمرة الأولى، في حب عنيف ربما لا يقع فيه إلا من يقع في الحب متأخرا. على أية حال لم يعد يتحدث إلا عن الزواج، رغم أنه أسرّ لي في نفس الوقت أنه يجد التقبيل أقل سهولة بكثير مما يبدو في الأفلام. قال لي أيضا، السبب الوحيد الذي جعله لا يقدم ماجدلينا إليّ حتى الآن، خوفه من النظرة الساخرة التي أنظر بها إلى النساء. ليس لأنه يخاف أن لا تصمد صديقته أمام نظرتي، وإنما لأنه يرغب أن تشعر بالمودة نحوي. وعدته أن أنظر إليها كما لو كانت زهرة. غير أنني حين رأيتها أول مرة نسيت الزهرة، رأيت المرأة فقط وفهمت افتتان تاسو بها. كما أني لاحظت جدا أن ثمة شيئا فيها افتقدته صديقاتي، بقي هذا الشيء غامضا لي. أحسست فقط أنني لن أنتهي عند ماجدلينا حتى لو كانت حرة. رغم ذلك وجدتها في الحال لطيفة، ولأنني اعتقدت أيضا أنني

أرى كيف يناسب الإثنان بعضهما، كففت عن كبح تاسو وتنبيهه إلى كل ما سيفتقده إذا ما تزوج أول محبوبة.

لم يكن يريد أن يسمع هذا وأوضح مرة محرجا، الشيء الوحيد الذي يكبحه أحيانا هو قلقه من ألا يستطيع إرضاء رغبات ماجدلينا الجسدية. وكما أعلم ولا أستطيع أن أفهمه أنه رغم سنواته التي تزيد على الخمس والعشرين لا يكاد يعرف شيئا. بينما لدى ماجدلينا على العكس منه تجارب. وهكذا فإنه ليخشى أن تجده قاصرا ومن المحتمل أن تعتبره غير كفوء، وهو كذلك. سألته عما إذا لم يكن قد نام معها بعد. قال أن التقبيل بالنسبة له معجزة بما يكفي، الشيء الآخر غير مستعجل. يا إلهي، قلت، يبدو أن الزواج مستعجل، لكن المضاجعة لديها الوقت لتنتظر. — هكذا هو الأمر، قال.

كان هذا في الربيع، في الصيف جرى الزفاف. سافر الإثنان إلى تيسين وقضيا أسبوعين في بيته. ثم عادت ماجدلينا، كانت تعمل مقَوِّمَةً للغة، بينما بقي جيوفاني يكتب في عمله النهائي دون أن يلهيه شيء. كانا يتصلان ببعضهما كل يوم تلفونيا، وكانت تزوره في نهاية الأسبوع. في نهاية أغسطس اتصلت بي، في يوم أربعاء. قالت إنها غادرت أغرا مساء يوم الأحد، ومنذ ذلك الوقت لم تسمع شيئا من تاسو و لم تستطع أن تتصل به. ما إذا كان قد اتصل بي. كلا، قلت وهدأتها،

وحتى أني ضحكت منها. بدا لي مبالغا فيه حقا أن تشعر بالإنذار بعد يومين ونصف من انقطاع الإتصال. لكنها كانت كذلك، ولأنها لم تسمع من جيوفاني في يوم الخميس أيضا ركبت يوم الجمعة القطار. ما وجدته في بيت تاسو فاق كل قدرة على التصور. كان مرعبا بشكل لا يوصف حتى أنها فقدت الوعي برهة. كان ممددا على الأريكة محنيا. فوقه نمل وأسراب من الذباب.

صمتٌ وشربت. — فظيع، تمتم لوس. قتل أم انتحار؟ – لا هذا ولا ذاك، قلت، مات ميتة طبيعية كما ثبت دون أدنى شك، نوبة قلبية، سكتة قلبية استغرقت ثواني. أغلب الظن يوم الإثنين وأغلب الظن سببها خطأ ولادي في أحد صمامات القلب. لم يتألم بالتأكيد، كان هذا هو العزاء الوحيد. تحملت ماجدلينا كل شيء، لكن كان عليها بعد أسابيع من دفن تاسو أن تشهد ما جعلها تنهار. كان تاسو قد اعتاد أن يحمل معه دائما آلة تصوير، آلة خفيفة متماسكة سماها يومياته الصغيرة. لم أر الصور التي التقطها إلا نادرا. لفتت نظري بكونها خالية مما يلفت النظر. كان يحب ما هو غير ظاهر ولديه نظرة له. باختصار كان لا يزال ثمة فلم في هذه الكاميرة، وقد كلفت ماجدلينا بتحميضه، كما قالت، لتعرف ما وقع تحت نظر تاسو في الأيام أو الساعات الأخيرة من حياته. كان عداد الصور يظهر أن سبع

صور قد التقطت، وعادت سبع صور مطبوعة إليها. أظهرت جميعها إمرأة عارية، بعضها من الأمام وبعضها من الخلف، تستلقي على الأريكة ذات الغطاء الأزرق الفاتح، الذي استلقى تاسو عليه أيضا حين وجدته ماجدلينا.

حدق لوس فيّ، صمت، قال بصوت مبحوح غريب: تابع! — ماذا كان بعد ذلك؟ قلت، إنتهت القصة. — كلا، قال لوس، ما من قصة تصل إلى نهايتها وتنتهي، يوجد فقط القطع الكيفي في أية نقطة. من كانت هذه المرأة؟ – لا ندري. قصت ماجدلينا الرأس من أحدى الصور التي كان يظهر فيها الوجه وعرضتها على المقربين من تاسو. لم يكن أحد قد رأى المرأة، لم ينجح أحد في الاعتقاد بأن تاسو يمكن أن يكون قد عاش حياة مزدوجة.

بحثت ماجدلينا في أشيائه عن إشارة من أجل اليقين، لم تجد ولا أصغر نتفة. نسيت أن أذكر أيضا أن تاريخ التقاط الصور كان مطبوعا على ظهرها. كانت قد التقطت قبل الزيارة الأخيرة لماجدلينا بثلاثة أيام، أعني قبل نهاية الأسبوع الأخيرة التي قضياها معا.

ليس لدي تفسير آخر سوى أن صديقي بعد أن استيقظ جنسيا، فقد السيطرة على غريزته، لم يستطع أن يتوقف، وطلب واحدة من بائعات الهوى لزيارته في البيت. رغم أن هذا كله لا يطابق صورته،

لكني لا أجد تفسيرا آخر، فبالنسبة لي ثمة شيء واحد مؤكد تماما: لم يكن لتاسو المحب محبوبة.

ما شكلها، المرأة؟ سأل لوس. — من الصعب القول، فأنا لم أر الصور، مقطع الوجه فقط، الذي حمل ملامح سلافية، عظام وجنتين بارزة، شعر أشقر مائل إلى الحمرة، القسمات أقرب إلى أن تكون جافة تشي بامرأة ناضجة، كانت بالتأكيد تكبر تاسو بعشر سنوات. لماذا تسأل؟

– هكذا فقط، قال لوس، تابعوا الحديث! أستطيع أن أضيف، قلت مربَكا، أيضا لأن لوس خاطبني ثانية بالصيغة الرسمية، أستطيع أن أضيف فقط أن ماجدلينا حصلت على الرعاية الطبية، وشفيت تدريجيا من الكآبة التي تسبب الشلل، والتي أصابتها بعد الصدمة المزدوجة. لم تدخل البيت في أغرا بعد ذلك أبدا وباعته قبل أربع سنوات: لي ولزملائي، شركائي في مكتب المحاماة. ذلك ما كان.

بالطبع إنه ليس سهلا أن تعيش مع الهاوية، قال لوس، والإغراء كبير في سبر غورها. لا ينبغي ذلك للمرء، إنه يقود فقط إلى حزن غاضب. إذا نظر المرء مصغيا إلى الأسفل فإنه يسمع صريف أسنانه هو أو صداه، ولا شيء آخر. من أنت؟ كيف يبدو الحال في أعماقك؟ أسئلة عابثة، إلحاح لا جدوى منه. ومع ذلك، مع ذلك، أعرف تاسو قليلا، رغم أنني لم أكن صديقه المفضل مثلك. — إنني لا أفهم، قلت، هل

هو طموحك في إرباكي؟ هل كنت تعرف تاسو؟ - إنك تسهل لي الإستماع إليك، قال، فالمأساوي يثير اهتمامي، فقط، إنه لمخجل لي، مثانتي، هل تسمح لي أن ألتمس مقاطعة صغيرة مرة أخرى؟ - نظرت إليه بعد ذلك وعزمت على ألا أكون غريب الأطوار هكذا أبدا.

حين عاد قال، أبخرة الضباب تنسحب، السماء تصحو، رأيت الأضواء، يستطيع المرء أن يتكهن بأحد عنصرة صاحٍ. وكما ذكر، حتى عقول الأقرب إلينا مختومة سبع مرات. ما أعرفه عن تاسو، أعرفه منك، ومع ذلك أنتهي فيما يتعلق بالمرأة الملغزة إلى صورة أخرى غير ما رأيتَ، لأنني أقيّم الأجزاء المنفردة بطريقة تختلف عن طريقتك. إنسَ الهيار السد. إنسَ زيادة نفاد الصبر والجوع الجنسي. اربط حب تاسو الكبير بانعدام خبرته في المجال الفيزيائي، وفكر في خوفه المؤثر من أن يخيب المحبوبة وأن يكون لها رجلا غير حاذق. تصوره يقرأ صحيفة ويقع على إعلان مفاده تقريبا: إمرأة ناضجة رقيقة تقوم بزيارات في الفندق أو البيت. — إغراء لتاسو! وهو الإغراء بأن يجعل نفسه بسبب حبه القلق تلميذا. يدعها تأتي، سأصبح الآن متكهنا: يلاحظ وقد حضرت أنه لم يعرف نفسه طيلة لحظة. إنه لا يريد امرأة أخرى، ولا لأغراض التمرين أيضا، لا يستطيع هذا. إنها تنزع ملابسها، تستلقي على الأريكة دون أن يطلب منها وتهمس: تعال هنا. - يقف طيلة

برهة حائرا، حتى تخطر له الفكرة. يقول لها إنه لا يريد أكثر من التقاط بضع صور. أنت من هذا النوع إذن، تقول له. ويستطيع أن يتحمل هذا بمرح.

لم أشك ثانية واحدة أن لوس رفع الحجاب، أن إعادة تشكيله وتفسيره للواقعة كان صحيحا. كرهتُه. كرهتُه لأنه أرغمني أن أضرب على جبيني وأعترف في قرارة نفسي بأنني كنت شديد العمى عن دوافع تاسو. شعرت أيضا بشيء مثل الغيرة، كما لو كان لوس قد تملك صديقي المفضل واستماله بصورة ما بعد موته. — إنك تقطب حاجبيك عن حق، قال لوس، يمكن أن أكون مخطئا. لا تقل لماجدلينا شيئا عن نظريتي، فإنها ستقنعها، وهكذا ستقع بعد وقت طويل في ضائقة مضاعفة.

سيكون عليها أن ترى عبر نظرة إلى الوراء أنها تمثلت شيئا لم يكن قد حدث كما اعتقدت، وتألمت. تضاف إلى ذلك مشاعر الخجل والذنب إزاء تاسو الميت الذي لم تنجح في أن تدافع عنه دون تردد ضد الظاهر الشرير. كيف حالها الآن؟ – إنها بحالة جيدة، لقد ارتبطت ثانية وأصبحت أمّا منذ وقت قصير.

كيف حال المرأة الأخرى؟ – أية أمرأة أخرى؟ – تلك التي تعاني من مشاكل عصبية، التي أكلتَ هنا معها مرة. — آه، هذه، قلت، لا

أدري، لم نر بعضنا بعد الانفصال، كيف خطرت لك الآن؟ – بصورة غير مباشرة تماما، قال لوس، إنها إذا لم أكن مخطئا، إلى جانب ماجدلينا المرأة الوحيدة التي يمكن أن أعرف عنها، أنها لعبت دورا في حياتك ذات مرة، لم ترو لي عن غيرها. — لهذا علاقة بالمكان الذي نحن فيه فقط والذي ذكرني بها. لم تكن بالنسبة لي أهم من غيرها، وهو ما لا يعني أنني لم أكن أكترث بها. بالمناسبة أعتقد أنك لست رجلا يهتم بقصص الحب والفضائح. — هل لي أن أعلم ما الذي حملك على هذه القناعة؟ – أتسأل عن ذلك أنت المدافع الملتهب عما يسمى بالحب الكبير! — توماس، قال لوس، لا يحتاج الحب إلى أن يدافع عنه، مثله مثل الشمس. النصيب الذي حصلت عليه دون أن أستحقه أغراني أحيانا حقا أن آسف من أجل جميع اولئك الذين يمسكون بجهاز للتدفئة بالإشعاع بسبب غياب الشمس. والآن، حيث أن سمائي ملبدة فأنا نفسي أحتاج إلى جهاز من هذا النوع، إنني فقط لا أحسن استعماله. لكن اهتمامي كبير. ما لا أستطيعه، ولذلك لا أعرفه، يثير فضولي. تابع! لقد أعددت نفسك لتوك، إستغل الإندفاع، ارو للهاوي والمتشدد عن شؤونك العاطفية. — نظرتُ إلى الساعة وقلت: أنت تتحدث عن جمع، لكنني أخشى أن يكون الوقت ضيقا جدا لأكثر من واحدة. – إذن عليك أن تقتصر، لا أستطيع أن أوفر

عليك حيرة الاختيار. — حسنا، قلت، هل يناسبك إذا ما بقيتُ عند صاحبة الأعصاب المنهارة التي ذكرتُها أكثر من مرة؟ – أتركُ هذا لك، المهم، أنا أتعلم شيئا إضافيا. – لا أدري ما يمكن أن تعلمك اياه هذه الحالة. — لقد قلت للتو: كيف يستخدم المرء جهاز تدفئة بالإشعاع.

حسنا، إذن، قلت، سأبدأ من البداية. رغم أنها ليست ممتعة مثل قصة كلبك، ولكنها لا تزال مثيرة بما يكفي، كما تكون البداية الأكثر إثارة بشكل عام فيما تقدمه علاقة ما. ما من شيء أكثر تشويقا وإثارة من أن تجس نبض إمرأة غريبة! بالنظرات، بالكلمات — وأخيرا، فيما إذا أزت الشعلة، بأيد متلاعبة وما إلى ذلك. بعد هذا الأزيز أكون مدمنا، ولكن ذلك نادرا ما يستمر بعد مرحلة البداية ويحل محله تدريجيا صرف الأسنان. نعم نعم، أعرف، لديك صورة أخرى بفضل تجربتك المختلفة، لا أزال احتفظ بتخطيط سلم مراحلك في ذهني. وإذن، أسكن في طرف مدينة بيرن، قرب مجمع أسواق، له حديقة صغيرة بملعب للأطفال. هناك مصاطب أيضا ونافورة ذات خرير. ذات مساء كنت قد تبضعت، رأيت رجلا يقف عند هذه النافورة، يضحك بغباء ويؤرجح شيئا ما في الماء. جلست على مصطبة وراقبته مستغربا. ظل يضحك ويؤرجح الشيء. إنضمت إمرأة إلى المشهد، جلست على

الطرف الآخر من المصطبة ونظرت أيضا. لاحظ الرجل اهتمامنا وبدا أنه يستمتع به. في الآخر أخرج الشيء من الماء وأمسك به برهة أمام تيار الأنبوب. كان الشيء كما رأيت الآن طاقم أسنان. نظر الرجل إلينا، فتح فمه، وضعه، طاقم الأسنان، وابتعد وهو لا يزال يضحك. نظرنا إليه، أنا والمرأة، إبتسمتْ، ضحكتُ. كان لها وجه لطيف، بل جميل، وقد أبرز شعرها الأسود تقريبا،

كان مقصوصا قصيرا، شحوبه. لم تكن من الطراز الذي أميل إليه، أنا أميل أكثر إلى النساء الشقراوات والرياضيات، اللاتي أستطيع أيضا أن ألعب التنس معهن. رغم ذلك بدأت أحادثها لأنني لا أستطيع غير ذلك. تكلمت قليلا، إلا أن لغة جسدها لم تكشف بوجه عام انغلاقها. تحدثت ببعض الأقوال المسترخية عن الشكل الغريب لقسر التعري الذي استطعنا قبل قليل أن نراقبه. بدا أنها وجدتني مرحا وبدأ الجليد يذوب إلى حدٍ تجرأت معه أن أكون حازما ومباشرا وأسأل ما إذا كانت تريد أن تشرب معي أبيرو في احتفال الأول من نيسان.

سألتْ إن كان سؤالي كذبة نيسان. كلا، جدٌ صارم، قلتُ.

إبتسمتْ، نظرت إلى ساعتها وترددت. ثم قالت كما لو كانت تحدث نفسها: لم لا في الواقع. — وكررت هذه الكلمات الصغيرة الأربع أيضا حين سألتُ بعد الكامباري عما إذا كنا نستطيع أن نلتقي ثانية.

إلا أنها أجابت بالنفي على السؤال التالي عما إذا كانت تسمح لي أن اختطفها إلى محل لطيف وحددت ملعب الأطفال مكانا للقاء — بعد أسبوع وفي نفس الساعة. تولت ببداهة كبيرة الدور الذي اعتدت أن اؤديه أنا في مثل هذه الأحوال: دور الرجل في تحديد أين ومتى. وقد أربكني هذا الوضع قليلا، ولكنه إجتذبني قبل كل شيء. فغالبا ما كنت في أيام الانتظار أتصور الساعة التي ستصبح فيها السيدة طيعة. بالمناسبة لم أكد أعرف عنها خلال تناولنا الأبيرو أي شيء، ولا حتى إسمها الأول، وهو ما زاد جاذبيتها بالنسبة لي. ثمة شيء ثالث اجتذبني: أنا أفضل النساء الناضجات. كانت هي كذلك. كانت مقبلة على الأربعين، حسب تقديري، سن يكون فيه للنساء حسب تجربتي النضج المناسب للاستمتاع.

لحظة، قال لوس، أريد أن اسجل التعبير، رغم أن ... — أخرج دفتر ملاحظاته، لكنه لم يكتب شيئا وأعاده ثانية.

أشار إلى ذراعه اليسرى وقال: الحساسية. — رأيت بالفعل عددا من النقاط الحمراء وسألته عما إذا كان يجد التعبير منفرا. — مستخدَما في الحديث عن المشمش أو الجبنة لا يجده منفرا على الإطلاق، إستمرْ في الحديث، لم أردْ مقاطعتك. — و لم أرد أنا أن أسبب لك الحساسية، على أية حال كانت ناضجة، وقد دارت أفكاري يوميا حولها وحول

مظهرها، وهو ما يعتبر عادة عرضا من أعراض الوقوع في الحب. ولكني لم أكن قد وقعت في الحب إلا بقدر كلب الصيد الذي يتبع أثره في الغابة دون تفكير.

إلا أنني لاحظت حين اقتربت من ملعب الأطفال في الموعد المتفق عليه أن قلبي يخفق، وهو ما لم يحدث لي منذ وقت طويل. كانت تجلس على المصطبة، تدخن وتنظر مأخوذة إلى الأرجوحة قرب البئر، حتى أنها لم تلاحظني إلا حين جلست إلى جانبها. حيتني تحية عابرة مخيبة، وحين سألت عن حالها وضعت إصبعها على فمها وأشارت برأسها باتجاه الأرجوحة. كانت ثمة طفلة صغيرة تجلس عليها وإلى جانبها متكِئا على العمود الخشبي وقف ما يُظن أنه أبوها، مستغرقا في قراءة مقال في جريدة شعبية، كان يدفع الأرجوحة من حين إلى آخر. لم يكن واضحا لدي ما يستحق الانتباه حتى يُطلب مني الصمت. نعم، لطيف، قلت أخيرا. كلا، بلا أمل، أيها السيد الدكتور، قالت. على سؤالي المندهش، من أين عرفت أنني أحمل لقب دكتور، قالت فقط، هناك دفاتر تلفون. وهكذا فقد شغلت نفسها بي، كانت هذه علامة طيبة ومشجعة أيضا مثل شفتيها. لم تكونا مزينتين في لقائنا مصادفة، ولكنهما الآن محددتان بلون أحمر داكن.

شربنا كامبري ثانية. بدت منشرحة. على سؤالي عن ظروف حياتها الشخصية قالت دون فظاظة إنها تقترح أن نستغني عن الاستقصاء المتبادل عن بعضنا. أخبرتني فقط بمهنتها: كانت مشرفة في دار للمعوقين. لم أستطع رغم اقتراحها أن أحجم عن سؤالها عما إذا كانت متزوجة. أومأت برأسها إيماءة خفيفة. ناسبني أن تكون مرتبطة، أحسست أنني أكثر حرية هكذا — وكذلك أيضا أكثر منافسة وإن شئنا أكبر رغبة في الغزو. بالمناسبة لاحظتُ طبعا، فأنا لست عديم الحدس، أن شيئا ما فيّ أعجبها. ولكن بعد ساعة — كنت أريد أن أسألها للتو عما إذا كان عليّ أن أذهب لتناول طعامي وحيدا بالفعل — نهضت وقالت: بعد أسبوع؟ - ألا يمكن في موعد أبكر، سألتُ. — بعد أسبوع، قالت، أنت تعرف أين. — هكذا تركتني أتخبط، هكذا نجحت، دون تخطيط واع كما يبدو، في أن تجعلني في الأسبوع التالي أكثر قلقا من فترة الانتظار السابقة. ربما أكون الآن قد وقعت في الحب فعلا، رغم أنني تذكرت جملة تاسو، الحب هو غبطة روحية، لا ترافقها إلا رغبة حسية متحفظة جدا. لم تكن رغبتي متحفظة، كانت، أعترف بهذا، طاغية.

الآن أتمالك نفسي بصرامة. في المرة الثالثة اختلفت الحال. بدت أكثر شبابا، منشرحة، وجريئة مثل فتاة. لم تكن تجلس على المصطبة حين

وصلت، كانت تجلس على الأرجوحة وحيتني مشرقة. ثم شربت ماء من الأنبوب، رأت ريشة طير في حوض النافورة والتقطتها. تعال، قالت ومشت نحو كومة الرمل في زاوية ملعب الأطفال. ستقيم حالا جبلا من الرمل، فكرتُ، لكنها قامت بشيء مختلف، كتبت بقصبة الريشة إسم فاليري في الرمل. شكرا، قلت، لقد جعلتِ الأمر مثيرا، فرضتِ علي طيلة اسبوعين كاملين لعنة أن أحلم بامرأة لا أعرف عنها سوى أنها تُدعى السيدة بيندل.

– كنت تستطيع أن تسألني مرة، قالت. – لقد سألت مرتين، رددتُ، يبدو أنكِ لم تسمعي. – لا نريد أن نختصم، قالت، فأنا جائعة . – اوكي، قلت منشرحا إلى أبعد حد، سأدعو في الحال سيارة تاكسي.

– لا تقل اوكي رجاء، إنني أكره هذه الكلمة المستوردة. – حسنا، قلت، هل تريدين بعد ذلك أن تعيبي عليّ أنفي؟ أرني! قالت. خفضت رأسي طيّعا، نظرتْ متفحصة ثم قالت: إنه اوكي.

أثناء العشاء، أكلنا شاتوبريان وشربنا شامبرتين من أفضل الأجناس، سألتها لماذا تغيرت هكذا فجأة، أصبحت هكذا خفيفة الظل ومرحة.

– لأناسبك بصورة أفضل، ولأن الأمس والغد لا يثقلانني على سبيل الاستثناء. – هذا يسرني، قلت، أنا كذلك، وليس على سبيل الاستثناء، وإنما غالبا. – أعرف، أعرف، كنت منذ البدء مطلعة، لا

يحتاج عصفور غير مقيد أن يكشف عن نفسه. — حسنا، فلن يدهشك أيضا إذا سألتك هل تأتين معي سويعة أخرى. — ترددتْ، فكرتْ، قالتْ: لم لا في الواقع. بقيتْ حتى الثانية صباحا، أستطيع أن أقول لك، كان ذلك رائعا.

يا إلهي، قال لوس، كم أنتم جميعا أحرار! — أنت كذلك أيضا، قلتُ، وكرجل ناضج من الطراز الذي يمنح الحماية كنت تستطيع، لو أردتَ فقط، أن تحصل على نساء بعدد الأصابع، بل بالذات شابات أيضا. — نعم، قال لوس، أنا حر، ولا شيء يبدو لي أقل قيمة. الجملة الرمادية ليست لي للأسف، رغم أنها تعبر عني بالضبط. هذا عرضا. وكيف كانت في السرير؟ - شاعرا بالقلق نظرتُ إلى لوس. السؤال لا يناسب شخصه، وهو ما جعلني أعتقد أنه يطرحه ليسخر مني ومن بطولاتي، ولكن ربما أيضا ليختبر مستواي. بشيء من الاستياء قلتُ، ليس لدي الانطباع بأن الجواب يهمه. — لقد قدمت لي ما هو مثير، قال، لكنك تريد أن تمنع عني الحلوى؟ - ضحكتُ وقلت: حسنا، من رجل لرجل، كانت رائعة، كانت، كيف أستطيع أن أقول، حارة بطريقة متحفظة نادرة، وقد صرخت كما لو من فم مكمم. هل يكفيك هذا؟ - تماما، قال لوس. شرب، غصّ بالشراب وسعل. سأل بصوت مبحوح: كيف سار الأمر بعد ذلك؟ كيف انتهى ولماذا؟ أريد

الآن أن أستريح، قلتُ، واستمع إليك ثانية. — كما تريد تماما، ولكن عليك أن تساعدني، أين كنتُ قد توقفت؟ - يصعب القول، لقد رويت لي في الأخير كيف أنك التقيت بزوجتك بمساعدة كلبين. ولكن كان هذا أقرب إلى الاستطراد، وقد توقفت في الواقع قبل ذلك، عند مرض زوجتك.

صحيح، نعم، عند الأستروسيتوم. حين قلت لها أسترو مشتقة من أسترون الاغريقية وتعني < نجمة >، بينما سيتوس لاتينية وتعني < خلية > ومن كيتوس الأغريقية بمعنى <تجويف >، هنا ابتسمت حالمة و لم تتحدث بعد ذلك عن التضخم، أو الورم. وإنما عن النجمة في تجويف جمجمتها أو ببساطة عن نجمتها. نجمتي قالت منذ ذلك الوقت وليس: ورمي. ولأنها أيضا كانت خيالية قليلا قالت أيضا: لا يمكن لنجمة أن تكون عدوي أبدا. بدا الأمر أيضا هكذا بالفعل — لقد فسرت هذا -، كما لو كانت لا تنظر إلى الموت متجمدة من الخوف، وإنما بشكل ما بحنان تقريبا. خفت فترة من الزمن أن ترفض إجراء عملية، ولأنها تعذبت من الأعراض كثيرا، لم تفعل لحسن الحظ. لم يعرف المرء بالمناسبة ما إذا كان الورم طيبا أم خبيثا، أظهرت هذا أولا العملية التي أوضح المرء لنا أن احتمال نجاحها كبير نظرا لموقع الورم المناسب، وفي أحسن الأحوال تجعل علاجا بالأشعة أو الأدوية

غير ضروري لاحقا. في فترة الانتظار هذه التي لم تطل كثيرا قمت بأعباء المترل وقرأت من عيني بتينا جميع رغباتها، رغم أن هذا لم يكن جديدا،

كان النهوض بأعباء المترل أقرب إلى ذلك. إشتريت دون علمها كتابا للطبخ، نباتيا طبعا، درسته في المدرسة في الأوقات التي كان فيها التلاميذ يكتبون واجبا، سجلت المواد، إشتريت ما هو ضروري وفاجأت زوجتي كل مساء تقريبا بوجبة صغيرة مغرية. إلا أن شهيتها كانت ضعيفة، وشهيتي في كل الأحوال. بدا أن خوفي الدائم من الأسوأ وغير المتصور في الواقع يضيق قصبتي الهوائية وبلعومي. كان وقتا عصيبا. كان وقتا جميلا أيضا. كنا نملك بعضنا. كنا متحدين. كنت متخففا ومسرورا حين رأيت بتينا تقرأ في كتاب يحمل عنوان *الخطوات المائة إلى السعادة*. أظهر لي هذا أنها لم تستسلم، أنها لا تزال مقبلة على الحياة. أوقعني في نفس الوقت في حيرة، فقد كان علي أن أسأل نفسي، لماذا تستطلع مثل هذا الكتاب. كانت بصرف النظر عن آلامها الراهنة دائما سعيدة. معي أيضا. ربما ليس دائما، واضح، السعادة ليست حالة دائمة، وإلا لما استطاع المرء أن يشعر بها كسعادة، أليس كذلك، التعاسة فقط هي حالة دائمة، كما يبدو، باختصار، قرأتْ مثل هذا الكتاب واستطاعت أن تقول لي فجأة، إنها

لا تريد زينة للقبر وخاصة الأكاليل وأغصان الصنوبر المضفورة وأغصان التنوب والى آخره، كل هذا فظيع. لم تكن بيننا اختلافات في الذوق وليس في هذا أيضا، ومع ذلك عجزت عن الكلام حين تحدثت هكذا. لقد غيرنا الآن الأدوار للمرة الأولى. تمرنت كمتشائم على التفاؤل وتوليت التفكير الايجابي، ورأت هي دائما الحياة أكثر سوادا، ولكن دون أن تشكو أو تغرق في الخوف، وإنما بقدرية تماما. ربما ماتت وهي تحت السكين، قالت، رغم أنها أطلعت على أن حالات الوفاة التي تحدث بسبب العملية، حتى من هذا النوع الصعب، كانت نادرة. الموت بسبب العملية لا يصل حتى إلى 2%، إلا أن زوجتي أصرت أن تكون بين هؤلاء.

حين سألتها كيف توصلت إلى هذا الاعتقاد، قالت: النجمة تريد أن تبقى فيّ، ستدافع عن نفسها. — لم تقل أكثر من هذا، لم أستطع أن أحملها على البوح بأكثر من هذا.

ثم مضى كل شيء بشكل جيد، بل جيد جدا. تحدث المرء عن حالة مثالية، فأولا نجح فريق الجراحين في إزالة كتلة الورم كاملة من الدماغ، وثانيا أظهرت عينة النسيج أن الورم لم يكن طيبا تماما، ولكن، كما يقول الأطباء، *لا يزال* طيبا. لم تحدث مضاعفات بعد العملية، يحق للمرء أن يقول دون مبالغة إن بتينا قد شفيت. زرقها قدر

ما استطعت وأمسكت بيدها. لم تكد تتحدث، كانت متعبة جدا، وقد عزوت إلى هذا التعب أن دموعها كثيرا ما أهمرت وأنها لم تستطع أن تعبر عن الارتياح أو الفرح سواء بالكلمات أو بعينيها المغشيتين. أهديت لي من جديد، قلت لها وكنت مكتئبا قليلا لأن يدها بقيت في يدي دون حياة تقريبا.

حين كنت أدخل البيت في المساء بعد زيارة المستشفى كان فراغه ينتقل إلي. كنت أجلس ضائعا دون عمل، ولأني لم أكن قادرا على أن أنشغل بشيء مفيد، شاهدت التلفزيون ساعات طويلة، مستعدا لتلقي أسخف المواد، كنت أخاف السرير. كان نومي خفيفا، نصف نوم تقريبا، أفقت منه مذعورا أحيانا، أيقظني همس بكلمات حب أو فقط اسم بتينا الذي أحببته، لأن ايقاعه ناعم مثل الريش، أذكر هذا عرضا. إثنتا عشرة سنة هي زمن طويل، وحين يستلقي المرء بعد ذلك في السرير وحيدا، هو ذاك، كما لو أن المرء نفسه قد ضاع، كما لو أن المرء نفسه لم يعد قادرا على التنفس بسبب غياب تنفس الآخر. ورغم ذلك أعتقد أننا لم نصبح لبعضنا أبدا قطعة زينة مكملة، لأن المرء يعتبر هذه شيئا بديهيا ويعاملها دون انتباه.

نجونا من الاعتياد المقبض الذي كثيرا ما يتسلل إلى العلاقات الزوجية، يجب أن أعترف بهذا، ويمكن أن يؤدي إلى أن المرء لا يكاد ينظر إلى الآخر، من يعرف لماذا. سواء صدّقت أم لم تصدّق.

لم لا أصدق؟ – أعرف كيف تفكر في الزواج، قال لوس، تحدثتَ بوضوح كاف عن هذا وكشفتَ لي المتنهدين النمطيين من موكليك: *القضية قد انتهت من نفسها* . ستسمع الجملة خارج مكتب المحاماة أيضا، في إطار مغامراتك، وذلك من تلك الزوجات اللائي وقعن في سحرك لأنهن يعشن في علاقة منتهية، من تلك الأيميلي مثلا، التي تحدثت عنها لتوك. وهكذا يقوى اعتقادك دون انقطاع بخطأ الزواج.

– أولا لم يكن إسمها ايميلي وإنما فاليري، وثانيا إنها لم تحط من العلاقة القائمة، لم تستخدمها كتبرير لسلوكها، على الأقل ليس إزائي، إنها لم تتحدث مطلقا عنها، رغم محاولاتي الكثيرة لاستدراجها إلى قول شيء. لم تتحدث عن زوجها بشيء تقريبا وأيضا ليس سلبيا، وهو ما جعلني أشعر قليلا بالغيرة – هكذا بالمناسبة مثل تصوُّر أنها ستتابع النوم مع موسيقيّها وكأن شيئا لم يحدث. فكونه موسيقيا، بكلمة أدق معلم جلو، جاز لي أن أعرف. وأن اسمه كان فيليكس. أنت ترى أن مثالك لم يكن موفقا، لكني أعترف أنك كنت محقا في بعض الأشياء: صادفت بالفعل نساء شكون من زيجاتهن بعد القبلة الأولى ومن النقص

لدى رجالهن. لكن هذا إشارة تحذير لي: إذا تذبذبت العلاقة وظهر رجل آخر في نفس الوقت، تزيد شجاعة المرأة للقفز خارجا كما يزيد اعتقادها بأن الآخر هو بطانية القفز التي ستتلقاها. ليس هذا دوري. إنني أرفض أن أعتبر بديلا جادا أريد أن أتضارب لاهيا ولا أكتم هذا عن أحد، وإذا بدأت رغم ذلك تتشبث، فإنني أقطع العلاقة.

بالمناسبة إنه حسب خبراتي ليس صحيحا أن النساء غير الراضيات وغير الملباة حاجتهن وحدهن يمكن أن يقعن في الإغراء. لقد رصدت ظاهرة أخرى غير نادرة جدا سواء من الخارج أو عشتها بنفسي أحيانا، ظاهرة أرحب بها. كثيرا ما يبدو أن النساء الموجودات في عهدة أيد قوية ويشعرن فيها بالطمأنينة بوجه عام، يحتجن إلى شيء آخر. يحببن رجالهن كقطب هادئ ويشعرن بأن الزواج حصن، مرفأ عاطفي يردن أن يبقين فيه. ورغم ذلك ينقصهن شيء، رغم ذلك يمارس البحر المفتوح المتحرك والمتقلب قوة جاذبية كبيرة عليهن. ما الذي يؤخذ على حمام مثير وليس عديم الخطر تماما؟ لا شيء في الواقع، ما دام المرفأ باقيا في مجال النظر. هل تفهم ما أريد قوله؟ كيس الماء الحار في السرير صلب ويشع دفئا مريحا، وعلى العكس أكثر رومانتيكية وأزيزا هي النار.

نعم، أفهم، قال لوس، الأزواج هم أكياس الماء الحار وأنت شيطان النار. ما تدعيه قد لا يكون خطأ تماما، لكنك فقط تطرح ذلك كما لو أن القفزة في البحر المتوحش حلم النساء النموذجي. يوجد أيضا رجال مرتبطون لا يريدون أن يفتقدوا زوجتهم الأليفة وكاوية القمصان ويعطون لأنفسم الحرية ليرقصوا في عرس ثان وفيما يبدو أكثر لطفا. أنا نفسي لم أشعر أبدا بالحاجة للبحث في مكان آخر، وذلك للسبب البسيط، لأن زوجتي كانت غنية ومتعددة الجوانب فلم أفتقد أقل شيء، كانت موجودة وكانت بالنسبة لي كل شيء. ولكن مهما يكن، ما أردت أن أسأله: إلى أي من مجموعتي النساء في مغامراتك تنتمي فاليري؟ هل جاءت من زواج مذبذب أم سليم؟ – لم أستطع أبدا أن أعرف، قلتُ، لقد ذكرتُ أنها لم تكن تريد أن تتحدث عن هذا. كانت بوجه عام كأنها قادمة من اللا شيء، كما لو لم تكن لديها حياة ماضية أو تاريخ، وأنا مقتنع أن هذا كان بالنسبة لها الأكثر جاذبية في علاقتنا. لاحظتُ كيف استمتعتْ بأن تكون ورقة بيضاء وتفاجئني وربما تفاجئ نفسها أيضا بكل ما كانت تقوله، ترغب فيه أو تفعله. أعتقد أنها أصبحت بالنسبة لنفسها جديدة بأن أحست كم كانت جديدة جدة مثيرة با لنسبة لي. استمتعت أنا أيضا بالطبع بأن تكون لي محبوبة توفر عليّ كل ثقل وليس لديها أيضا الحاجة لتعريف

علاقتنا أو تخيفني بالتلميحات فيما يتعلق بالمستقبل. إلا أنني ذات يوم بعد حوالي خمسة أسابيع من تعارفنا ذعرت مع ذلك. كنا، وحيث أن كلينا كان يحب رقص التانغو، في حفلة رقص، وسألتها في طريق العودة لماذا أصبح لديها فجأة وقت أكثر من أجلي وكيف تفسر خروجها المتكرر من البيت. دع هذا لي، قالت بغلظة. ولكن في هذه المرة لم أترك الموضوع حتى عرفت منها أنها تسكن في الوقت الحاضر لدى أختها. وهنا ذعرت. ماذا كنت أستطيع أن استنتج سوى أنها قد تركت زوجها بسببي؟ إلا أننا كنا قد تفاهمنا ولو دون كلمات أيضا، أن نستمتع مع بعضنا دون تعقيدات. كان رأيي أن فاليري كانت تفهم علاقتنا كعلاقة حب، تستمتع بها على هذا الأساس ولا ترى من جانبها سببا أن تضعضع زواجها. انتقدتها وسميت تركها للبيت قرارا خاطئا. سألتها لماذا تعرض ما هو قائم للخطر وتترك زوجها الذي لم تتحدث عنه أبدا بسوء. كان إيقاع كل شيء كما لو كنت أشفق عليه إشفاقا أخويا. يبدو أنها أدركت ما أفكر فيه وعرفت سبب استيائي. على أية حال قالت، كما لوكانت تريد إقلاقي، يتعلق الأمر بانفصال مؤقت، باستراحة للتنفس. كنت قد سألتها أكثر من مرة عما إذا كان زوجها يعرف بنا، و لم أحصل على جواب أبدا. استطعت الآن أن أفترض أنه كان يعرف. للتأكد سألت عن ذلك.

ردت عليّ بالسؤال، لماذا يهمني ذلك كثيرا. لم أكن أعرف، أعتقد أن وضعها مناطقَ لا أستطيع الدخول إليها يربكني ببساطة. بعنف غاضب تقريبا، دون مقدمة، ضاجعتها في ذلك المساء.

تثاءب لوس ونظر إلى ساعته. أرى أنك ضجر، قلت له، وأنا أفهم ذلك. إنك تفكر في زوجتك، ربما في ذكرى وفائها غدا، وأنا أعذبك بقصص النساء وأسخّن ماضيا. — من حق المرء أن يتثاءب، قال لوس، لهذا علاقة بنقص الأوكسجين وليس بعدم الاهتمام. ما يبدو لك تافها أجده أنا كشخص خارجي وهاوٍ مثيرا، هل تذهب إلى أغرا مشيا؟ – سيكون هذا أكثر تعقلا، لماذا تسأل؟ – أولا لأن العاملين هنا ينتظرون منذ وقت طويل انصرافنا، وثانيا لأني أريد أن أرافقك. فأنت مدين لي في الآخر بالتتمة وكذلك بنهاية القصة. — حسنا، بسرور. أفترض أنك تعرف انك أنت أيضا لا تزال مدينا لي بشيء. — واحدا بعد الآخر، قال لوس.

أحضرت مظلتي التي كنت قد تركتها على الطارمة. رجاني لوس وهو يترنح قليلا أن يحملها، فهو يحتاج إلى ساق ثالثة. مضينا عبر القرية. حين مررنا بدكان القصاب، وقف لوس لحظة وقال: اللحم متقلب المزاج. — ماذا يعني، سألته، لكنه لم يجب، أعطاني بعد فترة الكلمة المناسبة لأتابع الحديث. — سألخص، قال: في اللحظة التي حققت فيها

ايميلي مزيدا من الحرية إلى حد ما بأن تركت البيت، شعرتَ أن حريتك مهددة، صحيح؟ – إسمها فاليري، وفيما عدا هذا فإنك تصور القضية بصورة صحيحة. قدر ما كانت فرحتي كبيرة بأن أكون معها اكثر من السابق بكثير قدر ما كان قلقي بأن خطوتها المهمة يمكن أن تُثقِل فجأة السهولة الرائعة حتى الآن. لست مخلوقا لارتباط وثيق، إنني أنا الهاوي في هذا الفرع. — هل أنت متأكد أن ما تتوق هي إليه هو مفزع بالنسبة لك؟ هل كان ثمة قرائن أخرى عدا تغيير المنزل؟

هل تحدثت مثلا عن الحب؟ – ليس هذا، قلتُ، لقد تجنبتْ كل فعل أو قول يمكن أن يعطي فكرة أنه قد يضيق علي. هذا بالذات أظهر لي كم هي مهتمة ألا تفقدني. امتنعت علي أحيانا، لم تحضر إلى موعد لقائنا أحيانا — كلاهما دون تقديم سبب وكلاهما، أنا مقتنع بهذا، من أجل أن تجاملني، لتستعرض استقلالا وعدم ارتباط. كان ثمة علامة أخرى. سبق أن قلت أن فاليري لم تكشف في البداية إلا القليل جدا وتركت تاريخها يبقى تاريخا. لم يضايقني هذا، على العكس، عشنا في الحاضر مثل كل الثملين. كان غريبا فقط أنها لم تصبح أكثر ميلا للكلام فيما بعد أيضا، حين أصبحنا نرى بعضنا كل يوم تقريبا. ربما، كما ظننت، لذلك أيضا، لأنني أعلمتها في الفترة الأولى، كم هو مثير لي أن تكون امرأة غامضة حبيبة لي. وهكذا يمكن أن تكون قد أرادت

أن تبقى مثيرة لي، بأن تابعت تسترها وصمتت فيما بعد أيضا. وأخيرا كان هناك قرينة ثالثة. بعد أن خفتت النشوة الكبيرة، لدي على الأقل، تغيرت فاليري قليلا. أصبحت أكثر جدية. الإنشراح الناسي للعالم الذي أحببته لديها، بدا فجأة متكلفا إلى حد ما. لم تعد تعبث وإن فعلت فكان يمكن أن يحدث أنها تحيط عنقي بذراعيها دون مقدمة وتسفح قليلا من الدموع. باختصار، هذا كله أقلقني، كل هذا بدا أنه يظهر لي كم كانت رغباتنا مختلفة فجأة. وسمعت ولو من بعيد الأغنية التافهة والقديمة: يريد الرجل فضيحة بينما تريد المرأة علاقة. كنت أستطيع لو أردت أن أكون شريرا أن أتابع الترنم بالأغنية: إذا تحققت رغبتها في علاقة واستمرارية، في شريك موثوق به يمنحها الطمأنينة، ثم سيبدأ شيء ما ينقص إن عاجلا أم آجلا، شيء مُتبَّل، فوار، ساخن. تريد المرأة كليهما دائما، والرجل الذي يستطيع أن يكونهما لها، الرفيق المحبوب وكذلك الرجل الشهواني المبتغى، يجب أن يولد أولا.

أنك تعيد نفسك، قال لوس، ونصف الحقيقة المكررة لا يصبح حقيقة. الأفضل أن تروي لي كيف تجنبت شر علاقة ثابتة. كم استمرت العلاقة الحرة بوجه عام؟ – أقل من ربع سنة بقليل، قلتُ، وفي منتصف الفترة تقريبا، حين أعتقدت أنني لاحظت أن فاليري تعلقت بي بجدية أكثر مما ينبغي، بدأت أقلل من ترددي عليها. تذرعت

بأسباب مهنية، رأينا بعضنا أقل من السابق. ولكن كان ما بيننا في الواقع حين رأينا بعضنا جميلا كما كان من قبل، خاصة من الناحية الحسية. كان مرجع ذلك أن جسدها هو الشيء الوحيد الذي استطعت أن أمسك به، لأنها أخفت جوهرها جزئيا. كان جسدها ملموسا، خلافا لكل ما عداه، وميلها إلى أن تجعل من نفسها سرا لتكون تبعا لهذا مثيرة للاهتمام بدأ يسبب لي تدريجيا أشد الضيق.

قال لوس، يجب أن أذهب بسرعة لقضاء حاجة. — أنا أيضا في الواقع، قلت. — وقفنا كما فعلنا في الليلة السابقة، معا على جانب الطريق. — توجد كؤوس أزهار، قال لوس، تبقى غير متفتحة إذا لم تشرق الشمس. إنها تشعر بالأشعة كتأييد، كشيء حام، وغيابها يجعلها تنسحب داخل نفسها، أن تحجب نفسها مثلها. — شاعري جدا، قلت، مجازي جدا، هل يمكن التحدث أيضا بمباشرة أكثر؟ – نعم، قال لوس، يمكن أن يكون أكثر مباشرة: أشفق على هذه المرأة. – أولا لست وحشا، قلتُ، وثانيا عرفتْ هي بالضبط ما الذي بدأت به ومع من. لو كانت قد بحثت عن ميناء آمن لكانت قد ابتعدت عن طريقي.

صمت لوس، احتاج لوس وقتا أطول، سبقته ببضع خطوات. حين لحق بي — سمعتُ فقط الدقة الخفيفة للمظلة على الرصيف –، انتابني

الخوف للحظات، شعرت أن ثمة من يتعقبني، الغريب أنني شعرت كما لو أن ضربة تتهددني من الخلف. بلغني لوس. لم أرد أن أهاجمك، قال، كما لو كان يعرف ما خطر لي. لكنه لم يكن يتحدث عن ذلك فقد تابع: لقد قربتني من فاليري، مثلما فعلت بصديقك تاسو، وذلك بطريقة أيقظت فيّ المشاركة، هذا كل شيء. — إذن إطمأننت، قلت، فقد شعرت بإشفاقك كلوم، وأنا لا آخذ على نفسي شيئا حقا، وإن فعلت لأخذت على نفسي جُبني: ترددت طويلا في أن أهديها نبيذا صافيا، أن أقول لها أن الانفصال هو أفضل لكلينا. وحتى ترددي نفسه كانت له أسباب. أردت أن أراعي وضعها العصبي، وهو لم يكن في أفضل الأحوال، وقد أصبح في الشهر الثالث من وجودنا معا سيئا بصورة مثيرة للقلق. نوبات بكاء، أرق، تشنجات، ارتعاش الجفنين وأحيانا الأصابع، كان عذابا حقا. بالطبع سألتها عما إذا كانت تعرف سبب الاضطراب، تحدثت عن مشاكل في دار المعوقين، عن عملها المنهك، عن فقدان الانسجام الديناميكي في المجموعة وما إلى ذلك. كان رأيي أن عليها أن تعمل شيئا، عليها أن تراجع طبيبا نفسيا. فعلت ذلك بعد ممانعة طويلة. نصحها الطبيب بالإقامة في مصح كاديماريو، سافرت إلى هناك في يونيو. إتصلت بها تلفونيا من وقت لآخر، بدت أقرب إلى البرود و لم تقل أبدا أنها تفتقدني — وضع

أشعرني بالارتياح مثل بلاغها بأن وضعها يتحسن يوميا. إفترضت الآن في الواقع أنها بفضل الابتعاد عني وبفضل الابتعاد المريح عن الحياة اليومية عادت إلى نفسها، هذا يعني، إلى إدراك أن الوقت قد حان للانفصال. قدرت أن تنفيذه بالاتفاق ممكن، وفي الاسبوع الثالث والأخير من إقامتها إستجمعتُ قواي. بدا لي الانتظار حتى تعود فاليري كسلا إلى حد ما وليس من الحكمة في شيء، فقد كان على المرء أن يخشى أن الشجاعة لوضع نهاية للموضوع يمكن أن تتناقص ثانية في المناخ القديم المعتاد. في اليوم السابق للزيارة اتصلت بها، فرحت بي أكثر مما كنت أحب.

وهكذا سافرت ووصلت بعد الظهر، حوالي الرابعة إلى كاديماريو. كانت تجلس في طارمة مطعم المصح، تشرب القهوة مع امرأة عظيمة الجاذبية في ثياب عمل بيضاء. بدت فاليري مرتاحة، حيتني برقة وقدمت لي ايفا، متخصصة بالتنفس، بدت أنها تطمئن إليها تماما والتي كانت تريد أن تنسحب في الحال، وهو ما لم تسمح به فاليري. قالت لها مازحة، يصعب علي أن أبقى وحدي وأنها، ايفا، يجب أن تؤانسني، بينما تتركنا هي الآن لتستعد من أجل المساء حيث ستصطحب إلى الخارج. تحادثتُ مع ايفا بشكل بديع، بايقاع حر مريح، كانت الطراز الذي أحبه بالضبط. رياضية، ظريفة، جذابة. رغم أنني قد

اعتدت بعض الأشياء، غير أني استغربت قليلا مع ذلك أن أقع سريعا في حبها. ومضت عينا ايفا اللتان تشبهان عيون القطط، بوضوح لا يقبل التأويل. لست أعمى. ولأني لست غبيا أيضا قلت لها، إنه لأمر مؤسف أن تنتهي استراحتها لتناول القهوة قريبا. إنها لا تستطيع أن توفر علي الأسف، قالت، وعلى العكس لديها يوم آخر دون عمل، ما إذا كنت لا أزال في المنطقة. قلت: كنت قد خططت للعودة غدا، لكني مستعد عند الضرورة أن ألغي خطتي. هنا، لحالة الضرورة، قالت، وأعطتني بطاقة شخصية صغيرة ثم تركت الطارمة بخطوات مرنة. ستندهش كيف اقبلت ايفا علي دون كلفة، رغم أنها عرفت بالتأكيد أنني كنت على علاقة بفاليري. أنا نفسي لم أكد أندهش، في هذه الأشياء لا تعرف النساء تأنيب ضمير، استطعت أن أرصد هذا مرارا. ما أن يثير رجل اهتمامهن الجنسي حتى تصبح شريكته قليلة الشأن أو منافسة. لا تعرف الطبيعة الأنثوية شيئا عن المراعاة الأخواتية.

توقف لوس وقد ثقلت أنفاسه، منحنيا قليلا ومستندا بكلتا يديه على المظلة، وحيث ساد السكون المطلق، سمعت كيف اصطكت أسنانه بضع مرات.

ألست بخير؟ سألتُ. بلى، بلى، قال، يتعبني قليلا فقط أن أعجب بك.
لقد تصرفت بمراعاة أخوية مع زوج فاليري، حين تلقفت زوجته.
تصرفت مع ايفا بألف ضمير، حين كانت فاليري تتزين من أجلك.
الطبيعة الرجالية هي ببساطة أكثر نبلا، هيا، لنذهب، الوقت منتصف الليل تقريبا. حسنا، قلت، أعترف أن المسامرة مع ايفا لم تكن بريئة تماما، بالمناسبة لم تتمخض عن شيء أكثر من ساعة غرام ساخنة بعد ظهر يوم آخر، من الواضح أنها لم ترد أكثر من هذا. إتصلت بها فيما بعد أحيانا واقترحت اللقاء، إلا أن اقتراحاتي لم تناسبها أبدا، وتوقفت العلاقة بصمت. — وكيف سارت الأمور مع فاليري بعد ذلك، سأل لوس، كيف سار المساء معها؟ هادئا، قلت، رغم أنها كانت منشرحة كما في الفترة الأولى وبدت بوجه عام قد تعافت تماما. فقط كان ثمة جرح لم ألاحظه إلا حين عادت إلى الطارمة. كانت بنصرها مختفية في لفاف، كانت كما روت، في نزهة في الغابة، تعثرت لسوء الحظ بغصن، أدى إلى كسر إصبعها وذلك في الاسبوع الأول. على سؤالي لماذا لم تذكر ذلك ولا حتى بكلمة واحدة عندما اتصلت بها،
أوضحت أنها لم ترد أن تكون شكاءة وحسب. سافرنا ونحن نتبادل الحديث إلى أغرا بتوقف في أنغو حيث ملأت خزان الوقود واشترت فاليري سيجاير ومجلة نسائية. في بيتي فاحت رائحة عفن خفيفة، كان

الهواء ثقيلا، فتحت الستائر الخشبية والشبابيك. عانقتني فاليري. قلتُ أن علي أن أقوم باتصال سريع يتعلق بالعمل، صببتُ لها كأس سينار وذهبت إلى الحديقة حيث اتصلت من هناك بسكرتيرتي لأطلب منها أن تؤجل الموعدين اللذين كنت قد اتفقت عليهما لليوم التالي. حين عدت كانت فاليري تجلس على الأريكة تتصفح مجلتها. سألتْ عما إذا كنت أعرف أعلى حد تعيشه ذبابة الغرفة.

كلا، قلت. — ستة وسبعون يوما فقط، قالت. — قلت: بالمقارنة بذبابة الفاكهة التي تعيش يوما واحدا فإنه عمر لا يستهان به. — نهضت وعانقتني ثانية. أنت تتصرف كغريب، قالت، ماذا حدث؟ — لا شيء، قلت، إنني مرهق قليلا. — سألت عما إذا كان عليها أن تدلكني. قلت إنني جائع. سافرنا منحدرين إلى بيليفو. أكلتْ بشهية، أما أنا فبما هو أقرب إلى العناء، وروت بحيوية عن إقامتها في المصح، أيضا عن أنها صادقت ايفا قليلا. كيف أجد ايفا؟ قلت، أجدها لطيفة تماما، وخامرني في ذلك شك فجأة.

أعرف ما تقصد، قال لوس، كان لدي أيضا طيلة لحظة، لكني أعتقد أن فاليري، كما أعرفها من وصفك، لم تكن قادرة على الحيلة ولا حتى على التفكير بها وحسب. لم تطلب من ايفا أبدا أن تكون شركا لتختبر وفاءك. — نظرتك النفاذة مخيفة، قلت، كان هذا شكي بالفعل،

ومثلك استبعدته في الحال. حسنا باختصار، كنت أنوي في الواقع أن أقود الحديث إلى علاقتنا وأقول لفاليري بالرفق الممكن أن الأمر لم يعد بالنسبة لي صحيحا وأن لدي الانطباع أنني الرجل غير المناسب لها، وأنني سأبقى مدينا لها بما تنتظره مني، لم أستطع. كانت طيبة ونشيطة، لم أستطع، إنتظرت وتعمدت الإقلال من الكلام آملا أن تسألني مرة ثانية، ماذا بي. لم تسأل. عدت بها حوالي العاشرة إلى كاديماريو. ترنمتْ خلال الرحلة. ذهبتُ معها إلى الغرفة، أرادت أن أراها. كان ثمة زجاجة نبيذ أحمر وكأسان على منضدة، إلى جانبها جهاز تلفزيون، غطته فاليري بمنديل صغير. فتحَتِ الزجاجة، وهو ما كنت آتي به أنا عادة، وملأت الكأسين. جلست على السرير، إخترت الأريكة. — نخبنا نحن الاثنين! قالت، شربَتْ جرعة، وضعَت الكأس على المنضدة الصغيرة إلى جانب السرير واستلقت. فاليري... قلت. — توماس، قالت بحياء، تعال قليلا إلى جانبي، أعني بالملابس، هكذا ببساطة. — لم أستطع أن أتحرك، جلسَتْ. سأتحمله، قالت. سألت: ماذا إذن؟ – هذا الذي تريد أن تكاشفني به، قالت. — ثم أصغتْ إلي، متماسكة، أحيانا فقط ارتعش ذقنها. هزت رأسها حين انتهيت من كلامي، كما لو كانت موافقة. لم تطرح أي سؤال. بصوت واطئ لا

يكاد يسمع قالت: أشعر بأني بائسة. — بعد برهة نهضتْ وفتحَت الباب. — طِرْ! قالت.

هكذا كان، لم نر بعضنا ثانية أبدا أو نسمع عن بعضنا. أقول هذا دون أسف وأنطلق من أن الانفصال جرح فاليري بسرعة وإلا لما انسحبت بحزم هكذا، بل مارست الإرهاب فترة من الزمن. — ربما عادت إلى مرفئها الراسخ؟ قال لوس. ربما، قلت، لا بد من وجود رجال يستقبلون زوجاتهم بالأحضان معزينهن حين يعدن إلى البيت بعيون قرحها البكاء بعد خيبة مريرة. — هل لديها أطفال؟ سأل لوس. — كلا، قلت، لم ترد أطفالا أبدا. العالم مليء بما يكفي، قالت مرة، وكل هاوي كرة قدم جديد هو زائد عن اللزوم. لقد قالت ذلك كمزحة بالطبع لأنها تعرف أني واحد من هؤلاء. كتمتْ كالمعتاد الأسباب الحقيقية. لماذا تسأل؟ - لأكمل صورتي عنها، أجاب لوس. جهود حب ضائعة، قلت. إذا كنت أنا لا أملك صورة عن هذه المرأة المجهولة في الآخر، كيف تريد أن تكمل صورتك عنها؟ - الفراغات تنتمي أيضا إلى النص، قال لوس، وإذا كان الحال كذلك كما تقول فإنني أكمل صورة شبحية.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة حين وصلنا بيتي. لم أكن متعبا واقترحت شرابا للنعاس. لم يمانع لوس. أوقدت النار في المدفأة، وقف

إلى جانبها مفكرا. أشار إلى الأريكة وسأل عما إذا كانت سرير موت تاسو. كانت في نفس المكان، قلت. وجب التخلص منها وحرقها يومذاك.

قربت الأريكتين من المدفأة، ملأت كأسَي الكونياك وسألت: أي نخب يمكن أن نشرب. نخب ساعة الأشباح[2]، قال. — سألت إن كان يؤمن بالأشباح. حدق في اللهب و لم يتكلم. نظرت إلى وجهه الذي أضاءه اللهب المرتعش، وبدا وكأنه يتغير باستمرار. قال فجأة أن النار المفتوحة تذكره بقصيدة درامية، عنوانها *الأقدام في النار*، عما إذا كنتُ أعرفها. — قرأناها مرة في المدرسة، قلت، ما هو مضمونها، لم أعد أتذكره فيما عدا تفصيل لا بد أنه قد أثار إعجابي. أليس فيها رجل يصبح خلال ليلة لسبب ما شيخا تماما؟ - ليس هذا تفصيلا، قال لوس وتابع التحديق. رجوته أن يروي لي محتوى القصيدة. هز رأسه رافضا. إذا كان يريد أن يكون وحده، قلت، فإنني أنسحب، فأنا أعرف فيم يريد أن يفكر. يستطيع أيضا أن يبيت هنا، على الأريكة الصغيرة أو الكبيرة. قال بصوت خافت أنه مدين لي الآن أن يخبرني أخيرا بما حدث قبل عام، على الأقل ما أمسك بروحه. كان الوقت حتى مغادرة زوجته المستشفى فارغا وكما لو كان قد توقف. لم يعد يلاحظ مروره إلا من خلال سطل القمامة الذي كان يمتلئ ببطء.

كانت سعادته عظيمة حين عادت بتينا إلى البيت، ولكنها تكدرت ثانية من خلال معرفته أن عليه أن يستغني عنها مرة أخرى، فقد كان لا بد لها من عطلة نقاهة. حيث أن معالجة لاحقة بالأشعة وما إلى ذلك أصبحت فائضة والحمد لله، تُركت لها حرية اختيار مكان إقامتها. درست كراريس إعلانية مختلفة، كذلك كراس مصح وفندق استجمام كاديماريو ولأنها تذكرت أنها نظرت معه عبر الوادي بمناسبة نهاية أسبوع هيسه في مونتاغنولا من غرفة بيليفو وكانا ملتصقين ببعضهما، عبر البحيرة اللامعة إلى سلسلة المرتفعات وإلى القرية التي استقرت عاليا فوق بما فيها مصحها الضخم، لأن بتينا تذكرت هذا إتخذت قرارها في الحال.

أما هو فقد أعرب عن تردده، كان يفضل أن تكون أكثر قربا إليه، ليستطيع زيارتها أكثر ما يستطيع. ثم أنها قالت إن الأجمل والأسهل لو أنهما سافرا معا في عطلة. تحدث في الحال مع مدير المدرسة وطلب عطلة منحت له تحت شرط بالطبع، أن يعوض الساعات التي ألغيت. فرحت بتينا، كما أصبحت أكثر انشراحا من يوم إلى يوم بوجه عام رغم نوبات التعب التي أصابتها بين حين وآخر. تبدو كلمة منشرحة قديمة، لكنها مناسبة. وهكذا حجزا غرفة لشخصين بنافذة مطلة على الجنوب وشرفة، وفي بداية الأسبوع الثاني من يونيو سافرا بالسيارة،

ليكونا أكثر حرية. لا يتعين عليه أن يصف لي فندق المصح ولا أيضا المنظر الرائع الذي يراه المرء منه فقد رأيتُ كليهما. كانا يقفان على شرفتهما مستندين بذراعيهما على الحاجز، وينظران في البعيد، وبدوار خفيف في الأعماق أيضا. قالت بتينا إن الحاجز الذي لم يكن يصل إلى سرتها هو عتبة منخفضة خطرة بالنسبة للمتعبين من الحياة. رد عليها أن المرء لا يتوقع بالضرورة متعبين من الحياة في فندق استجمام. أعطته الحق وتناولت يده. كانا يقفان على الشرفة ويشعران كأنهما متزوجان حديثا. وقد أصبحت الليلة الأولى بالفعل ليلة زفاف خالصة، على الأقل جزئيا. عليه أن يتحدث في هذا الموضع مهما كان محجلا له، عن نوع من المرض الذي يضايقه حتى اليوم. إنه يعاني من البروكسيسم. شرب لوس جرعة من الكونياك، قلتُ: لم أسمع به أبدا، مرض رجالي؟ – هز رأسه نفيا. بروكسيسيم هو المصطلح العلمي لصرف الأسنان ليلا أو بدقة أكبر: لصرف الأسنان أثناء النوم. إنه لا يكاد يلحظ شيئا منه، ويختفي في بعض الأوقات إلا أنه يكون قويا في أوقات أخرى، عندئذ يمكن أن يوقظه صرف أسنانه، أو أن يشعر بآلام في الفك في الصباح، أو آلام في عضلات المضغ، أحيانا أيضا في الأذن. وبالذات في كاديماريو، كان القدر غادرا فأعطاه مرحلة مركزة من صرف الأسنان بشكل لم يحدث له من قبل. صرف الأسنان وحده

كان يمكن أن يكون محتملا، فهو لا يحدث صوتا عاليا، لكنه كثيرا ما يتناوب لديه للأسف مع الشخير. وهما مجتمعين أمرٌ منهك بالنسبة للمحيط بالطبع. لم يغمض لبتينا جفن تقريبا في تلك الليلة الأولى، وقد تعذبت. كانا قد تحدثا عن المشكلة. كان واضحا له أن نشاطه في صرف الأسنان والشخير سيمنع بتينا من النوم وبالتالي استجمامها كليا، لذلك اقترح أن يناما في غرفتين منفصلتين. قاومت بتينا في البدء ثم وافقت في الآخر وهي حزينة. لقد سعى إلى غرفة، غرفة منفردة طبعا، وما أزعجه أنه لم تكن ثمة غرفة خالية. أن يستأجر غرفة مزدوجة لم يكن موضع سؤال تقريبا نظرا لارتفاع السعر.

وقفا يتشاوران على الشرفة، هنا رفعت زوجته ذراعها، أشارت إلى مرتفع كولينا دورو الواقع في الجهة الأخرى من السهل وقالت < إذهب إلى فندقنا، بيليفو >. أقنعه هذا ، رغم مسافة الكيلومترات الأربعة التي تفصلهما أثناء نومهما. لم يندما على هذا الحل، على العكس، الوداع المسائي، اللقاء الصباحي والعثور على بعضهما، كان شيئا خاصا وقد كثف شعورهما بالارتباط. يكاد المرء يستطيع الحديث عن ربيع حب ثان، وهو ما لم يكن مناسبا تماما، فلم يحل الخريف أبدا في حياتهما الزوجية. لم يعقدا علاقات مع النزلاء الآخرين، كانا مكتفيين ببعضهما وتجولا ساعات طويلة في غابات الكستناء وغابات

البتولا، بالطبع مع استراحات. مرة قالت بتينا إنها تشعر بالخوف قليلا من العودة إلى العالم الحقيقي. رد عليها، غابات البتولا تنتمي أيضا إلى العالم الحقيقي. صحيح، قالت، ولكن فقط لا يسمع المرء فيها ضجيج الحرب. كانت قد لمحت بهذا إلى حرب كوسوفو المضطرمة يومذاك، التي كانت قد أرعبتها بعمق. هل تعرف، تابعت، أشعر أن الجرائم هناك مثل ضربات على رأسي تخدرني وتسرق مني لذلك الرؤية الواضحة. — قال لها، هذا ما يشعر به الكثيرون، وهذا كريم ومع ذلك خطر، لأن خدرنا يقوي المجرمين. ثم يستطيع المرء أن يقول، أوضحت بتينا، العجز جواب مستقيم على الجنون الساحق وغير مستقيم في نفس الوقت. يبدو الحال هكذا. قال لها. عانقته بشدة واقتربت منه كما لو كانت تريد أن تري أنه لا يزال ثمة ما هو بسيط تماما على الأرض.

خرج مع بتينا مرتين وشرب معها في شرفة بيليفو بيانكو دي ميرلوت. قالت إنها تعتقد أنه من هنا يستطيع أن يرى شرفتها في المصح في الجهة الأخرى، على الأقل بمنظار، على الأقل حين تومئ له وهي في برنسها الأبيض. واعيا أنه يتصرف بحمق قليلا إشترى في لوغانو منظارا صغيرا. في صباح اليوم الرابع، في الساعة الرابعة تماما، كان الهواء صافيا، فندق المصح مضاء بأشعة الشمس، أجري الاختبار

ومن المثير أنه نجح. رآه، برنس بتينا الأبيض، بوضوح، وإن كان أكبر قليلا من منديل. ثم سافر إلى هناك مثل كل صباح ليتناول الإفطار مع بتينا. لم تكن قد ارتدت ملابسها بعد، ادهشه كم بدت ساحرة في برنسها الأبيض ومنديل الرأس البرتقالي المعقود مثل عمامة. تلقت بفرح طفولي خبر انه استطاع أن يرى تلويحها بوضوح، ولن ينسى الفرح في عينيها. ما من واد، فكر يومذاك، ما من واد من العرض بما يكفي ليفصله عن بتينا. إتفقا بينما كانت ترتدي ملابسها على أن يكررا لعبة التلويح في يوم آخر، في التاسعة مرة أخرى، بعد حمامها، كانت بتينا تذهب في الثامنة والنصف كل صباح إلى المسبح الداخلي. ثم كانا يتناولان إفطارهما، إلا أنه لا يتذكر ما فعلاه بقية اليوم.

أترون، قال لوس وحول نظره من النار إليّ أول مرة، هل ترون الآن، كم كنت على حق: في عيد العنصرة يتراقص اللهب. — توماس، قلتُ، إننا نخاطب بعضنا بأنت. — لم يسمعني، كان يحدق ثانية في المدفأة. مضت دقائق. توت شوكي طازج، قال فجأة، توت شوكي، أتذكر هذا، كان هناك في المساء كحلوى بعد الطعام. — أعرف، قلت، طلبتها زوجتك كمقبلات لأنها خشيت أنه يمكن أن يجهز عليه الآخرون قبل أن تنتهي من الوجبة الرئيسة. قذارة م ا يعرفه ، غمغم لوس. — رغم أنه بدا لي واضحا أنه دون أن ينتبه في الظاهر نطق بما

يفكر فيه بصوت عال، كنت ذاهلا و لم أستطع فهم خشونته وكذلك عودته إلى صيغة أنتم. إنقضت دقائق ثانية. غاص في ذاته بشكل ملحوظ. نهضتُ وأحضرتُ له قدحا من الماء. كان عليك أن تأتي بوثاق لليدين، قال قبل أن يشرب الماء. — لي أم لك؟ سألتُ. لي بالطبع، قال. — سألت ما الذي جناه؟ صمت. أصبح جسمه مشدودا. ثم قال: معذرة، اختلطت علي الأمور قليلا، إنني أحسن الآن، أعتقد أنني أستطيع الآن أن أنهي حديثي. لا تحتاج أن تضع في المدفأة مزيدا من الحطب، سأختصر.

جلسنا بعد العشاء في الشرفة طويلا. لم أعد أتذكر في ما تحدثنا، لكني لا زلت أعرف أن زوجتي بكت عندما غادرتُها. قلت إنني سأعود قريبا. هذا لا يمكن أن يعزيها، قالت، إنها تبكي من السعادة. في صباح آخر، يوم جمعة، كان الحادي عشر من يونيو، وقفت مبكرا أمام النافذة. كان اليوم صحوا ثانية، المنظار فوق الحامل، العدسة حادة الرؤية. من الخوف الزائد من أن يفوت علي ظهور بتينا، بدأت أنظر في التاسعة إلا عشر دقائق. في التاسعة كنت قد فقدت الصبر قليلا حيث أنها لم تظهر مع دقات الأجراس. كانت في العادة دقيقة جدا في مواعيدها. أشارت الساعة إلى التاسعة والدقيقة الخامسة والدقيقة العاشرة بعد التاسعة، لم يُلوِّح لي برنس أبيض. رغم أنني قلت لنفسي

طبعا، يمكن أن تكون قد بقيت نائمة، أو أن محادثة أخرتها في المسبح الداخلي، وحتى أنها يمكن أن تكون قد نسيت الاتفاق، إزداد قلقي. اتصلت بها في غرفتها، لم تجب. إنتظرت حتى التاسعة والنصف، حاولت أن أتصل بها ثانية، دون جدوى، وسافرت نصف غاضب، نصف قلق إلى الجهة الأخرى صاعدا إلى المصح. كانت غرفتها مغلقة، قرعت الباب برهة، لا شيء. ثم ألقيت نظرة سريعة على المسبح الداخلي، وفي غرفة الرياضة أيضا للتأكد. فلم تكن تجلس على الطارمة أيضا ولا في غرفة الطعام، بدأت أبحث عنها في الحديقة، عند المسبح الخارجي وحتى في حديقة الصبار ذات الجدران الزجاجية. لا شيء. أسرعت إلى البيت ثانية وصعدت الدرج وقرعت باب غرفة بتينا ثانية. ثم ذهبت إلى الاستقبال وسألت منقطع الأنفاس عن زوجتي. نظرت السيدتان إلى بعضهما وقالتا معا: ها أنت أخيرا! — بصوت خافت طلبت مني إحداهما أن أذهب إلى المكتب في الخلف. قالت إن المرء لم يستطع أن يبلغني، لم يعرف أحد أين أسكن. يصعب عليها أن تضطر إلى إبلاغي أن زوجتي تعرضت لحادث في المسبح الداخلي، في الثامنة والنصف. إنزلقت على حافة الحوض وسقطت سقطة سيئة، يبدو أنها ارتطمت برأسها من الخلف، وإلا لما أغمي عليها. لن تكون الإصابة بالضرورة سيئة. نُقلتْ دون تأخير إلى

لوغانو، في اوسبيدالا سيفيكو، ما إذا كنت أريد أن أتصل في الحال. سأسافر إليها، قلت وتركتها تصف لي موقع العيادة دون أن أكون قادرا على المتابعة. بعد رحلة ضللت فيها طويلا وصلت إلى هناك حوالي الثانية عشرة. قادني المرء إلى غرفة العناية المركزة. كانت بتينا قد انتظرت ولو فاقدة للوعي. فقط حين وصلت وأستقرت يدها في يدي أغمضت عينيها. مع برود يدها بردت أنا أيضا. أستطيع أن أتذكر هذا فقط. لم أعد أتذكر كل ما عدا هذا. ما كان علي أن أوعز بعمله، أن أنظمه وأن أرتبه، فعلتُه بصورة ميكانيكية. مضى أسبوعان حتى تراجع تبلد الشعور. وقد حدث هذا عندما فتحت خزانة ملابس بتينا أول مرة. حررني منظر فساتينها، تنانيرها، بلوزاتها، سترها التي كانت ميتة ومع ذلك معلقة تنتظر أن تكوى. أحسست كيف ذابت العقد المتجمدة فيّ في ثوان. وبعد ذلك بوقت قصير إكتشفت في غريفة المخزن قرب غرفة بتينا ثلاث حقائب زرقاء جديدة لم تستخدم لم أكن قد رأيتها أبدا. لم أستطع أن أفسر وجودها ولا تأثري الكبير لدى رؤيتها.

صمتَ لوس. سألت بصوت خافت، ممَ ماتت بتينا. — منديل رأسها الكبير، قال، رغم أنه تكوم مثل نوع من العمامة لم يخفف من الصدمة إلا قليلا، ينطلق المرء من نزيف في الدماغ، رغم أنه لم يجر التأكد منه.

لقد رفَضَ تشريح الجثة. كانت حماية جسد زوجته من الأيدي الغريبة أهم كثيرا لديه من معرفة سبب الموت.

توماس، قلت، هذا كله يؤسفني جدا جدا، آمل كصديق، إذا سمحت لي بهذه العلاقة، أن تستطيع أخيرا تجاوز هذا. — إنني بلغتُ هذا تقريبا، قال لوس ونهض. بالمناسبة أنت الأول والوحيد الذي سمع قصتي، هذا عرضا فقط، ولكني سأذهب الآن. — لا أريد أن أكون ثقيلا، قلت، لكنه يسرني أن أراك مرة أخرى، بسرعة فقط، سأحضر غدا السيارة. — فكر لوس. سأنام كفايتي، قال، سأكون جالسا في الحادية عشرة في الطارمة قدر ما تسمح الظروف. — سآتي، قلت. يسرني ذلك.

رافقته حتى باب الحديقة حيث وقف مترددا. قلت: حسنا، حتى الغد، وأتمنى لك أحلاما سعيدة هذه الليلة. لا يبدو أنه سمعني، ولا أنه رأى يدي التي مددتها لمصافحته. كان القمر قد اختفى والهدوء كبيرا. كان ثمة حفيف خافت لسياج القصب إلى جانبنا يسمع وكذلك اصطكاك أسنان يثير وقعه القشعريرة تماما. — إن لم يكن كل شيء على ما يرام، سألتُ لوس، ما إذا لم يكن يريد حقا أن يبيت هنا. — لقد ساعدتني، شكرا، قال. — في أي شيء إذن؟ سألت. — لقد ساعدتني جدا، قال. — لقد أحببت الاستماع إليك، لا تحتاج أن تشكرني على

ذلك، وإذا كان هذا قد خفف عنك، إذا لم أخطئ فهمك، فإنني أجده حسنا. – إقترب لوس مني خطوة وقال بصوت مضغوط وفي أذني تقريبا: إذهب للنوم مع تفسيرك الخاطئ، ولا تنس أن تغلق الباب بالمزلاج. ثم استدار، دون تحية واختفى في الظلام.

**الفصل الثالث**

رغم أنني جلست ساعة تقريبا أمام الرماد الذي أخذ يبرد، بقي إنصرافه الغريب غير قابل للتفسير. إستطعت أن أخمّن وحسب أن لوس من خلال استحضار الحادث المأساوي عن طريق الحديث وقع في حالة يعبر فيها الهيجان الداخلي عن نفسه كاضطراب في السلوك. من كانت هذه حاله فلا أمل في تفسير سلوكه والعثور على معنى في كلمته الأخيرة.

ذهبت للنوم، تابع لوس التحويم. كنت أود أن أعتبره مجنونا من أجل أن أنعم بالهدوء أخيرا. خطر لي الوثاق. إذا أراد أحد أن يقيّد بوثاق، فإن لديه شعورا بالذنب. إذا كان لدى المرء شعور بالذنب، فهو قد حمل نفسه ذنبا. لا يجب أن يكون قاتلا. لا ينبغي أن يكون قد قتل المرأة في المسبح الداخلي غرقا. لا يجب أن يكون قد وقع لها حادث في المسبح الداخلي. لم تتزلق أبدا. لقد صنع لوس لنفسه رواية موت تبرئه. في الحقيقة كان الأمر هكذا: كان قد شرب كثيرا وفقد السيطرة على سيارته في واحد من المنعطفات الضيقة في الشارع المؤدي إلى كاديماريو. كانت العاقبة موت زوجته. على سبيل المثال. على سبيل المثال أيضا: يجلس في غرفة في المصح وهي تقف على الشرفة في الخارج. يرى من على الأريكة، أنها تنحني فوق الحاجز

أكثر فأكثر، ويقفز ويصرخ: بتينا! فتسقط في لحظة صرخته. ومنذ ذلك الحين يلازمه الشعور بالذنب والجنون. واضح. لا تنسَ أن تقفل الباب بالمزلاج! هذا يعني: أحم نفسك مني، إنني مجرم! واضح. إذهب للنوم مع تفسيرك الخاطئ! هذا يعني: كم أكون متخففا ومتحررا حين أحتفظ بالحقيقة لنفسي. — شيء واحد فقط يبقى غير واضح: لماذا وعلى أي شيء شكرني لوس؟ في أي شيء يمكن أن أكون قد ساعدته؟ سأسأله غدا مرة أخرى. لقد وثق بي بشكل شامل، كشخص وحيد، كما قال. إنه يشعر بالمودة تجاهي. لماذا يكون عليه أن يكذب علي؟ ما الذي يربحه من ذلك؟ حادث استحمام ينتهي بالموت: ما هو غير القابل للتصديق في هذا؟ تُنقل بتينا إلى المستشفى وتموت. ليس ثمة مصح في العالم سيقرع الناقوس لمثل هذا الحادث. سيقال، سافر قبل الموعد، إذا سأل أحد ما. أريد أخيرا أن أنام. قد يكون لوس معتوها او لا يكون، أريد أن أنام. أو أتصل بفرانسيسكا، إنها مختصة، إدعت مرة أن كل إنسان، فيما يتعلق بوضعه النفسي، يتجاوز الحدود الخضراء بين المرضي والطبيعي أكثر من مرة في اليوم. — مستحيل. كما لو كنا جميعا نقف بقدم في دار المجانين، طابت ليلتك!

أحد عيد العنصرة: حلمت بعد أن نمت بأحلام مضطربة وغير معقولة، نهضت في التاسعة. كانت حالي أفضل من الأمس، كنت سأستطيع أن أعمل وانزعجت من موعد الحادية عشرة. فقد أقحمت نفسي في ورطة ببساطة هكذا، دون أن أفكر ولو لحظة في واجبي ومشروعي وهو ما يثير الآن استغرابي. هكذا استبد بي لوس. شعرت بالسأم، السأم من لوس. شعرت كما كنت أشعر غالبا عند معارف الليلة الواحدة، أشعر بنشاط بتأثير النبيذ والرغبة، وأصبح ممتلئا لبضع ساعات وبشكل ما بعيد عن العالم، وحين أفيق في الصباح، لأن قدم امرأة غريبة دفعتني، أنكمش من الذعر والسأم.

تغير كل شيء ثانية عندما هبطت متنزها تحت سماء حليبية إلى بيليفو. لاحظت أنني فرح. حلت محل نيتي ألا أبقى أكثر من نصف ساعة الرغبة في أن أتناول الطعام مع لوس وأكون مرة أخرى قريبا منه إن أراد.

جلستُ إلى مائدتنا في الطارمة. كانت الساعة تقارب الحادية عشرة، و لم يكن لوس قد ظهر بعد. كانت نوافذ غرفته مفتوحة، علامة على كونه قد استيقظ. طلبت كمباري. لم يكن لوس مستعجلا، نظفت نظارتي. بين حين وآخر رفعت نظري إلى الواجهة المائلة إلى الصفرة، لم يتحرك شيء في النافذة. ربما خرج إلى الهواء الطلق. شرع النادل

يغطي الموائد. كان واحدا آخر غير الذي كان في الأمسيتين الماضيتين. بعد نصف ساعة ذهبت إلى المطعم. كان من الممكن أن يكون لوس قد نسي أين أردنا أن نلتقي. لم يكن جالسا هنا. حين عدت إلى مائدتي كان كأسي قد رفع. المائدة محجوزة من الساعة الثانية عشرة للأسف، قال النادل. — لشخصين؟ سألتُ. أومأ برأسه حائرا. قلت أنا واحد منهما، كنت مقتنعا إلى هذا الحد أن لوس قد احتاط لنا. هكذا، قال النادل، وجلست ثانية وطلبت كامباري آخر. بنفاد صبر متزايد رفعت نظري إلى نافذة لوس. فجأة ظهرت فيه إمرأة ونفضت خرقة لمسح الغبار خارجا. وإذن لم يكن لوس في الغرفة. في الثانية عشرة جاء النادل إليّ يتبعه عجوزان وسأل تحت أي اسم حجزت مائدتي. لوس، قلت، السيد لوس هو ضيف في الفندق هنا. — لحظة، قال النادل، أسرع مبتعدا، عاد مسرعا وقال، لم تحجز مائدة تحت اسم لوس. — غريب، قلت، ربما كان سوء تفاهم، معذرة. — أخذت كأسي. في الجانب، أبعد من الطارمة، في مستوى باب مدخل المطعم، كان ثمة منضدتان صغيرتان من الغرانيت دون غطاء. جلست على نحو أستطيع معه رؤية باب المدخل والطارمة. أصبحت الساعة الثانية عشرة والنصف. قال لوس إنه سيجلس ابتداء من الحادية عشرة في الطارمة إن سمحت الظروف. وقد افترضت أنه قصد ظروف الطقس.

يخطر لي الآن، ربما كان هذا خطأ. ربما منعته أسباب أخرى من المجيء.

خطر لي في الساعة الواحدة أنه ربما كان قد ترك لي رسالة. ذهبت إلى الاستقبال. ذكرت إسمي وسألت السيدة عما إذا كان ثمة خبر لي من توماس لوس الذي يقيم هنا. — لوس؟ سألت وقطبت جبينها وتناولت سجلا. — ليس لدينا ضيف بهذا الإسم، قالت. — بلى، بلى، قلت، لقد جلسنا هنا مرتين، أمس وأول أمس مساء. — نظرت السيدة مرة أخرى في سجل النزلاء وسألتني إن كنت أعرف رقم الغرفة. — لا أعرف هذا، لكن غرفته تقع في الطابق الأعلى، منظورا إليها من الطارمة هي الأخيرة إلى اليسار. — أها، قالت السيدة، ألقت نظرة ثالثة على سجلها، ألقت نظرة ليست ودية جدا إلي وقالت: لا أستطيع أن أساعدك للأسف. — إسمعي، قلت، السيد لوس هو صديقي، أردنا أن نلتقي هنا في الحادية عشرة، لكنه لم يأت. ليس مفهوما لي لماذا ترفضين إعطائي أية معلومات. — أستطيع أن أقول لكَ فقط، قالت السيدة، لا يقيم لدينا و لم يقم نزيل إسمه لوس والسيد الذي يقيم في الغرفة التي ذكرتها غادر في الصباح الباكر. — رجل طويل جدا، ضخم له صوت عميق يلفت النظر؟ سألتُ. — هزت مرفقيها فقط. حدقت فيها مبهوتا، سألتها عن اسمه. — يؤسفني،

قالت، نحن ملزمون بالسرية، حماية للزبائن. — لكنه صديقي، كررت، دون أن ألاحظ في حيرتي كم كان هذا التوضيح غير مشجع. قالت السيدة أيضا إن المرء يعرف عادة إسم صديق له. فكرت حين كنت أقود السيارة باتجاه أغرا، أنني عادة إنسان ذو ذهن صاف وفهم محلل. في هذه اللحظة لست إنسانا من هذا النوع. دماغي في اللحظة الراهنة عقدة، لذلك أيضا نسيت أن أدفع ثمن كأسَيْ الكمباري. — أستدرت بالسيارة وعدت إلى بيليفو، حيث دفعت ديني بأصابع مرتجفة.

في البيت أغتسلت برشاش ماء بارد ولوقت طويل، حتى انخفضت حرارتي. كان حال الوقائع في الحقيقة واضحا، نظام التفسير ببساطة: تركني لوس. كنا قد اقتربنا من بعضنا، تحدثنا مع بعضنا طيلة أمسيتين حديثا مركزا أصبح أكثر شخصية من ساعة إلى أخرى، كدنا نصبح أصدقاء- ورغم ذلك تخلى لوس عني ومضى هاربا دون وداع. كان هذا حقيقة واحدة تصرخ بصوت عال تطلب تفسيرا. بصوت أعلى صرخت الثانية وغير المعقولة تماما: لوس، شخص متحضر وفاضل في الظاهر، وإن كان مهووسا إلى حد ما، ينزل في فندق تحت إسم مستعار.

فكرت في البداية عما إذا كنت قد قلت في المساء السابق ما يمكن أن يكون قد جرح لوس ففضل ألا يراني بعد ذلك. لم يخطر لي شيء.

كانت ثمة خلافات حقا، لكن هذا لم يكن سببا ليجرح، ولا بأي حال سببا للانفصال. بدا لي أكثر رجاحة أن لوس، مثله مثلي، شعر في الصباح بالسأم فأراد أن يكون وحيدا، أراد أن يكون صامتا، إعتكف في مكان ما ليفكر في زوجته دون أن يزعجه أحد. ولكن بدا لي ممكنا أيضا أنه بسبب الخجل ممزوجا بالغضب هرب مني. يحدث أن إنسانا وثق بشخص وباح له يشعر بالخجل ويشعر بالنفور إزاء الشخص الذي وثق به. لا يحب المرء المطلعين دائما ويأخذ عليهم بين ما يأخذ أن المرء كشف نفسه أمامهم تقريبا. — وبهذا كانت الحقيقة الأولى قد فُسِّرت بصورة مرضية. سببت لي الثانية إنهاك فكر أكبر. ما الذي دفع لوس أن يسجل نفسه تحت إسم مستعار؟ بحثت في البدء عن أسباب بسيطة. ربما كان هذا النوع من التنكر مجرد لوثة. ربما وجد الأمر مرحا ومخففا أن يتخلى عن إسمه الحقيقي وأن يكون لعدة أيام على الأقل متنكرا. لم أستطع أن أشاركه هذا الشعور، وهو ما لا يعني بالطبع شيئا، ثمة غرابات أطوار كافية أجد صعوبة في تمثلها. وقد كان أسهل علي أن أعتقد بهذا التفسير من الاعتقاد بالآخر الأكثر مغامرة والذي يرى لوس كمطارد تبحث الشرطة عنه، وربما كسجين هارب ساقه دافع داخلي إلى الاقتراب من مكان الجريمة، الاقتراب من

المكان الذي ماتت فيه زوجته مهما كانت الكيفية، ولكن من خلال فعله.

مصابا بتوتر أعصاب لم أعرفه من قبل تجولت في المنزل والحديقة. توقفت فجأة. خطر لي فجأة: كان لوس قد أقام عدة أيام في بيليفو قبل عام. وهكذا لا بد أنهم يعرفونه، من المؤكد أنهم لم ينسوا الرجل المميز وبالتأكيد إسمه أيضا. كيف استطاع لوس أن يجرؤ أن يسجل نفسه باسم مستعار؟ بدا لي هذا مستبعدا، بقي لي استنتاج واحد. تركني أتجمد. أنا، كنت أنا المخدوع. لقد قدم هذا الإنسان نفسه لي على أنه لوس، في سجل النزلاء على العكس سجل في الظاهر إسمه الحقيقي. أستلقيت على الأريكة، لكنني نهضت بعد دقائق قليلة ثانية لأنني لا أستطيع أن أفكر جيدا وأنا مضطجع. فكرت لماذا تقلقني القضية على هذا النحو. رغم أن المرء يستطيع أن يتحدث عن احتيال وتضليل لم ينتبني شعور بالعجز الأخلاقي، فأنا لا أكاد أعرف هذا الشعور على أية حال. كان يمكن ألا أكترث أيضا بأن يكون اسم لوس ماير أو موللر. ملصق مزور لا يغير المادة التي ألصق عليها. كنت أشعر مع ذلك بالخيبة. وكنت لا أستطيع أن أتجنب التساؤل: ما الذي أستطيع أن أصدقه من إنسان تواصل معي باسم مستعار وتحدث إلي طيلة أمسيتين. ألا يجب أن يوقظ هذا الاحتيال الريبة في أنه روى لي

حكاية أخرى فوق ذلك؟ – استبعدت هذا فلم يكن لذلك أقل سبب. ثار الشك حول تقريره عن موت زوجته وحسب، ولكن فقط إذا اتهمه المرء بالذنب أو الاشتراك في الذنب في هذا الموت.

وفيما عدا هذا بدا لي كل ما سمعته من لوس — سأبقي على هذا الأسم حتى وقت آخر –، قابلا للتصديق. ما هي المنفعة التي كان سيتوخاها من تقديم ما هو مختلق على أنه حقيقة؟

تابعت إعمال الذهن برهة حتى استسلمت، حتى كان علي أن أعترف أنني لم أجد جوابا عن السؤال الأساسي. فلو صح أن لوس لا يدعى لوس: فلأي سبب قدم نفسه للمجهول الغريب عنه تماما الذي كنته، باسم مستعار. لم أنجح الآن في قبول تفسير هذا على أنه مزاج بسيط وغرابة أطوار، كانت مشاعري تعارض هذا. أيدت مشاعري أن لوس يدعى لوس. ما الذي كان على إسم مزور أن يزوِّر؟ لم يخطر لي ما يضيئني، وقد قضى توتر نفسي وقلق لا يكاد يحتمل على المتبقي من قدرتي على التفكير.

تناولت الفأس. قطعت الخشب مثل مجنون، حتى تصببت عرقا وأصبحت أكثر هدوءا. ثم اغتسلت تحت رشاش الماء البارد ثانية، ارتديت ملابس نظيفة وركبت السيارة. كما لو كنت موجها من بعيد، دون تدخل مني تقريبا، سافرت إلى كاديماريو.

وقفت أمام مشرب الفندق. لأن معدتي كانت متشنجة شربت كأسا مضاعفا من الفيرنيت. في هذا المصح، قلت لنفسي، حدث الحاسم في الأمر. أين أعرف الحقيقة إن لم أعرفها هنا. ولكن ماذا تعنيني؟ ماذا تهمني أنا الذي لم أكن فضوليا أبدا؟ لماذا لا ينبغي أن أنجح في أعتبار القضية التي لا علاقة لها بي منتهية بحق الشيطان؟ إحتجت أن أعطي نفسي دفعة فقط، توجب علي فقط أن أتخذ قرارا عقلانيا، أن أنهي القضية، وسأكون حرا ثانية. — أعطيت نفسي دفعة، شربت كأسي ودفعت الحساب ثم توجهت إلى الباب. قبل أن أصل إليه بقليل جذبني شيء ما إلى الاستقبال، سألت عما إذا كانت أيفا،

طبيبة في أمراض التنفس — كنت قد نسيت اسم عائلتها — لا زالت تعمل هنا في المصح، إنني أحد معارفها وأود أن أراها بسرعة. سئلتُ عن إسمي فذكرته كاملا مع الدرجة العلمية وعرفت في الحال أن ايفا نيراك تتمتع بعطلة، لأن الوقت عيد العنصرة، لكنها موجودة في الدار، أغلب الظن في غرفتها. انتظرت في قاعة الاستقبال الكبيرة وعزمت على ألا أدخل في الموضوع مباشرة. أردت ألا يبدو الأمر كما لو أنني جئت فقط لأسألها عما إذا كان قد حدث قبل عام في المسبح الداخلي للمصح حادث أدى إلى وفاة. أردت أن أحادثها برهة ثم أطرح سؤالي في وقت ما كما لو أنه جاء بصورة عرضية. كانت بالتأكيد مطلعة،

فقد كانت واحدة من العاملين. كونها لم تقل شيئا عن الحادث قبل سنة بمناسبة ساعة الغرام التي قضيناها معا، لا يعني شيئا لأننا في تلك العصرية لم نتكلم مع بعضنا بطبيعة الحال إلا قليلا. لم أكد أتعرف على ايفا ثانية حين رأيتها قادمة. كان شعرها الأشقر البلاتيني المرسل ذا لون كستنائي الآن ومرفوعا إلى الأعلى. بدت صارمة، ورعة تقريبا، وقد قوى ثوبها الرمادي المغلق من الأسفل كسروال هذا الانطباع. العينان باردتان، الشفتان غير المزينتين دون ابتسامة، مصافحة فاترة: لم تكن كما يبدو مرحبة بزيارتي.

سألتني قبل أن أتمكن من قول شيء: هل جئت من أجلها أم من أجلي؟ لا أدري ما تعنين، قلت. — جئت متأخرا، لقد سافرت قبل ساعة. — من بحق السماء؟ - لا تتظاهر، لقد عرفتَ بطريقة ما أن فاليري ستقضي عيد العنصرة هنا. إنها الآن ليست هنا، لا أعتقد أنها تشعر برغبة في أن تراك ثانية، أتركها وشأنها! — ايفا، لم تكن لدي أية فكرة أن فاليري كانت هنا،

لا أعرف حتى أين تعيش الآن، لم أسمع منها شيئا منذ عام، منذ انفصالنا عن بعضنا. — وإذن أنتَ هنا من أجلي، يا له من تشريف. لنجلس.

تبعتها إلى شرفة المراقبة بشعور خفيف بالدوار. طلبتُ كأسا آخر من الفيرنيت، وايفا كأسا من النبيذ الأحمر. — لماذا جاءت فاليري إلى هنا؟ سألتها. — لتزورني بالطبع، أجابت ايفا. — لا زلتما إذن على اتصال ببعضكما، مدهش، قلت. — إنها صديقتي. — مهما يكن كنت يومذاك ... أنت تعرف، هل حدثتها عن ذلك؟ - ثمة أشياء، قالت ايفا، أتفه من أن يتوجب على المرء الحديث عنها. — شكرا، قلت. — وهو ما لا يعني، استأنفت القول، أنني يومذاك، لاحقا على الأقل، لم أستغرب من نفسي. أصابني بالذعر أنني يمكن أن أكون هكذا. — لقد شعرنا بالانجذاب إلى بعضنا، قلت، يمكن لهذا أن يحدث، لا تكوني صارمة هكذا. هل حدثتك فاليري عن انفصالنا، أعني يومذاك؟ - نعم، فعلتْ، في نفس اليوم الذي كنتُ فيه عندك. لأي سبب لم تخبرني أنت بذلك؟ - يبدو أنني فكرتُ أنه يستهويكِ بوجه خاص إغراء رجل مرتبط. — رجل كبير مثلك يثير الواحدة منا دائما، سواء كان مرتبطا أم لم يكن. — يبدو لي غريبا إلى حد ما أن أرى الرجل الكبير الذي تحمس له المرء يُسخر منه فيما بعد، لا أستطيع أن أفسر حقا عدوانيتك. — لا علاقة لها بمغامرتنا، قالت ايفا، أكثر منها بفاليري. — عليك أن تكوني أكثر وضوحا، قلتُ، هل تحدثت عني بسوء؟ - هل سمعتها تتحدث بسوء عن الناس الآخرين؟ - كلا في

الواقع، قلت. — لقد حمتك، ألقت الذنب على بؤسها وحده. — بؤس! أرجوك، قضينا وقتا جميلا معا، وحين انتهى، قبلت فاليري بذلك بتماسك. لقد لاحظت هي أيضا أننا لم نكن نناسب بعضنا، ليس على المدى الطويل على أية حال. — نعم، قالت ايفا، كان عليك أن ترى كيف كانت هادئة في اليوم الذي أعقب زيارتك. لم تبكِ، لم تجز شعرها، لا فكرة لديك يا رجل، وكان علي أنا بالذات — لم تكن تعرف أحدا هنا عداي – أن آخذها بين ذراعي وأخفف عنها، رغم أن رائحتك ربما كانت تفوح مني. كم شعرت في ذلك أنني سيئة، تستطيع أن تتصور. — آمل ألا تجعليني مسؤولا عن ذلك، قلت، لقد لهوت معي برغبة حرة تماما إذا لم أخطئ. — صحيح، قالت. مهما يكن فقد لاحظت بفضلك ما أقل ما تناسبني العلاقة السريعة، كانت تجربة جديدة بالنسبة لي، رغم أنك تعتقد العكس بالطبع. — لقد عكست النقيض، — ممكن، قالت، فلندع هذا. هل أنك لا تعي حقا بأي حالة من اليأس تركت فاليري؟ – بدت كما قلت متماسكة، لم تذرف دمعة، وفي الفترة التي تلت ذلك لم تصل منها أية إشارة، لا لوم، لا شكوى، ولا أيضا الرغبة في أن نتحدث بما لدينا مرة أخرى. — فسرتَ كل هذا بطريقتك، قالت ايفا، على النحو الذي يجعله مريحا لك. صورة فاليري الهادئة، التي انتقلت إلى النظام اليومي مسترخية

ودون شكوى وفرت عليك الحساسية وتأنيب الضمير على السواء. — لستُ قارئ غيب، قلت مستاءً، كيف لي أن أعرف أن أحدا ما يتألم إذا لم يقلص وجهه؟ وبوجه عام إنك تثيرين أعصابي تماما، لا أطيق المواعظ. — إنك حر في أن تذهب، قالت. — نعم، قلت، هذا أكثر حكمة. — ومع ذلك يبدو أن ثمة ما يعيقك. — كيف خطر لك ذلك؟ – لأنك تعض باستمرار على شفتك السفلى ولأنني لا أعتقد بالضرورة أنك أتيت إلى هنا لتقول لي فقط يومك سعيد. — هم، قلت، وسألت ايفا: ألم تسمع أبدا من فاليري بالفعل؟ – لا شيء مطلقا. — لقد انتقلت إلى مكان بعيد وهي تعيش وحدها، لم تستطع أن تبرأ من ألم الانفصال أبدا.

صمتنا برهة. ثم قلت، رغم أنني كنت مقتنعا أن ايفا بالغت وجهدت كما هو واضح أن توقظ لدي الشعور بالذنب، يؤسفني أن انفصالنا كان لفاليري مأساويا هكذا. يفاجئني أن أسمع أني كنت أعني لديها الكثير هكذا، لم تقل شيئا كهذا أبدا. — يبدو أنني أهتم فقط بما يقال، قالت ايفا، وأنني أعمى عن غير ذلك. رغم أن فاليري كانت أيضا عمياء، ولكن بطريقة مختلفة تماما. — قلت، إنه مزاج لطيف للطبيعة أن يلتقي أعميان. — لم تعلق ايفا على ذلك. لقد تسلل سوء تفاهم صغير، هكذا قالت. ما لم تستطع فاليري أن تنساه هو الانفصال عن

زوجها، ليس عنك. – إبتلعت ريقي وسألت ايفا، لماذا حدثتني قبل قليل إذن وذلك بنغمة دراماتيكية عن ألم فاليري وحالتها المحزنة بعد انفصالنا. – لأنه لم يكن ثمة شيء آخر، أجابت، لأن فاليري كانت يائسة حقا، لقد أحبتني حبا – ملغزا ومحموما، هذه كلماتها. ولكنها كانت تعرف دائما أن ثمة ما هو غير صحيح بيننا، لقد روت لها، لايفا، مشهدا، شاهدناه هي وأنا، في ملعب للأطفال. كان ثمة طفل يجلس على الارجوحة، قرأ أبوه الجريدة وهو يقف إلى جانبه ودفع الأرجوحة بين حين وآخر دون أن يرفع نظره. لم ألاحظ كم كان تصرف الأب خاليا من الحب ومتبلدا وغير مكترث. هي، فاليري تجاوزت هذا كما تجاوزت أشياء أخرى أيضا رأتها فيّ وحجبتها في الحال. امتلكت قلبها وكل حواسها تقريبا، قالت فاليري حرفيا، لقد استمتعت بهذه الواقعة دون تفكير، حيث أصبح واضحا لديها بعد ذلك بوقت قصير جدا أنه لا يجوز لها أن ترتضي لزوجها أن يحتملها في مثل هذا الوضع. لهذا تركته، رغم أنها لم تفعل ذلك بنية تركه نهائيا، وكبحت شعورها بالذنب. يبدو الآن ربما، تابعت ايفا، كما لو كانت فاليري قد أسرت لها بكل شيء يتعلق بي وبزوجها، لكن الحال ليست كذلك،

لم تروِ في الحقيقة إلا القليل وروت جاسة النبض، هكذا كما لو كانت تحاول أن تتذكر حلما. خاصة حول زواجها بفيليكس — الإسم معروف لي بالتأكيد — تحدثت تقريبا تلميحا فقط.

يبدو لي هذا معروفا، قلت، لقد تصرفت هكذا إزائي أيضا، لم تبح في الحقيقة بشيء، فضلت أن تكون محفوفة بالأسرار وقد أثار هذا التكلف أعصابي أكثر فأكثر. — إنه لخطأ أن تحكم على الآخرين منطلقا من ذاتك، قالت ايفا. أن يكون الكثير من تصرفاتي حيلة لا يعطيني الحق أن أفسر تصرفات فاليري أيضا بهذا المعنى وأتحدث عن تكلف. — سألت ايفا إن كانت تذهب إلى دورات نفسية. — قالت إنها لا تستطيع مساعدتي في هذا، لكنها تنصحني به بحرارة رغم أنها لا تعتقد في الواقع، أن الحساسية يمكن أن تُتَعلم. على هذا النحو أو ذاك، إنها ترى سلوك فاليري وحديثها المتردد أولا كشهادة على شعور الحياء والمراعاة. يضاف إلى ذلك الإحساس والخبرة، كم هو صعب صعوبة لا حدود لها أن يمسك المرء ما هو متناقض مثل العواطف بجمل. لدى فاليري سادت الفوضى، هذا ما قالته نفسها لها،لايفا، لقد شعرت أنها مذنبة وبريئة، منقبضة وسعيدة، خاوية وممتلئة، وذلك غالبا في نفس الوقت. كان هذا أيضا تفسيرا فقط لحالتها يومذاك، وعلى المرء أن يكون مسرورا في الواقع أنها بدلا من أن تصبح مجنونة تماما،

نجت بمشاكل عصبية. — لقد عرفت عن قضية الأعصاب، قلت، لكن فاليري عزتها إلى أسباب أخرى تماما. لم تتحدث أبدا عن فوضى المشاعر، و لم ألاحظ شيئا من هذا، حتى كان صعبا عليّ أن أصدق هذا على الإطلاق.

تنهدت ايفا، كما يتنهد المرء ليُشعِر الآخر أنه مرهق ويرى أنه من غير المجدي أن يستمر في الإنشغال معه. سألتُ رغم ذلك — رغم أن ما كان يهمني أكثر أن أحول الحديث أخيرا إلى لوس - عما إذا كانت فاليري قد جاءت إلي لأن علاقتها الزوجية كانت في أزمة. — إنها لا تعرف، قالت ايفا، لأن فاليري لم تكد تتيح لها هي الأخرى نظرة داخل علاقتها. لقد أقامت ما يشبه جدار حماية حول هذا الزواج، وهي، ايفا، احترمت هذا و لم تحاول أبدا أن تلح. حين تطرقت فاليري بالحديث عرضا إلى فيليكس كانت نبرتها دافئة بشكل غريب، كان يمكن للمرء أن يسمع احتراما بل حبا، حتى أنه كان بالنسبة لايفا غير مفهوم، ما الذي دفع هذه المرأة أن تلقي بنفسها بين ذراعين غريبين. إنها تستطيع أن تخمن فقط، وهي لا تريد هذا الآن. لكنها تستطيع أن تقول بتأكيد أن الدوافع لم تكن لا الرغبة الخالصة في التغيير ولا فنون الإغراء لزير نساء. — تجاهلت زير النساء وقلت، أجد مؤسفا أن قضية الزواج لم تعد إلى الوئام ، لقد توقعت ذلك في الحقيقة، أملته صادقا

وتمنيته لهما. — الرجل نبيل، معين وطيب، قالت ايفا. — غير متأثر تجاهلتُ أيضا هذه الملاحظة وأضفت أنني من ناحية أخرى أفهم فيليكس، لا يستطيع كل رجل أن يرحب بحرارة بإمرأة غير مخلصة، تطرق الباب عائدة. — كان هو كذلك، ردت ايفا، كان سيستقبلها بباقة ورد. — سألت إن كان ذلك يعني أن فاليري لم تعد تريد العودة إليه. — هكذا يبدو، قالت ايفا. لكن ثمة علامة لا تخدع كانت تؤكد أن فاليري تريد العودة لكنها كبحت هذه الرغبة. — إذا كان الأمر كذلك فعلا، قلتُ، فإنني متشوق جدا لمعرفة الأسباب. — إنها دقيقة متشابكة ومن الصعب سبر غورها، قالت ايفا. — ما إذا كانت تعرفها، سألتُ. — قالت إنها تستطيع أن تشعر بها.

تركتها تشعر وطلبت ماء. — هل تعرفتِ عليه في أي وقت، أعني فيليكس بيندل؟ سألتُ بعد ذلك. لم أتعرف عليه، رأيته فقط عن طريق الصدفة، يومذاك عند زيارته القصيرة لفاليري. — زارها هنا؟ – نعم، فعل ذلك، وذلك حوالي نهاية الأسبوع الأول من إقامتها هنا، لا زلت أتذكره، روت لي هذا فيما بعد. — هل بات عندها؟ – اوه، السيد يغار، من كان يظن ذلك. لكني أستطيع أن أطمئنك، كانت مخلصة لك أكثر مما يجب، أكاد أريد أن أقول: للأسف. — مخلصة أكثر مما ينبغي، ما معنى هذا؟ – هذا يعني أن زيارة فيليكس اليائسة

ألأخيرة لها، من أجل استعادتها، أخفقت تماما. ردته، نهائيا كما هو واضح، لا بد أن الأمر كان فظيعا لكليهما. وحين حدثتني فاليري عن هذا، تلميحا كما هو الحال دائما، صار واضحا لدي هنا أنه لا بد أن يكون فيليكس ذاك الذي قابلته في ذلك المساء هنيهة. كنت أنتظر المصعد في الطابق الأرضي، وحين وصل وفتحت الأبواب، إنها لا تعمل اوتوماتيكيا، وقف قبالتي رجل بوجه شاحب، حدق في مضطربا. حييته ودخلت المصعد، ولأنه كان قادما من فوق و لم يغادر في الطابق الأرضي، إفترضت أنه يريد الوصول إلى الطابق الأسفل مثلي. لكنه لم يغادر هناك أيضا، سألته إن كان يبحث عن شيء معين. باب الخروج، قال بصوت مبحوح. قلت أن عليه أن يصعد ثانية طابقا إلى الأعلى، ثم يمينا على طول الممر فيصل إلى باب الخروج. كان هذا لقائي ببندل. لا يبدو أنه يهمك كما أرى، إنك تقرع دون انقطاع بأصابعك، حسنا، تكلم: لماذا جئت؟

لم يكن القرع واعيا، وقد اعتذرت عنه وسألتُ ايفا دون تكلف ما إذا كانت قد سمعت باسم بتينا لوس. فكرت، هزت رأسها وقالت: لم أسمع به أبدا، من تكون؟ – حسنا، كانت نزيلة هنا في نفس الوقت الذي كانت فاليري فيه هنا، كان يمكن أن تكوني قد صادفتها. —

نظرت ايفا إلي متفحصة وقد ضيقت عينيها. — اها، قالت، أفهم، وإذن كنت نشيطا بثلاثة أضعاف.

هل اعتقدت أنها هنا؟ أو أملت أن أستطيع أن أقول لك أين هي الآن؟ – هراء، قلت، ليس لدي علاقة بها، كانت برفقة زوجها. — أحس أنك هنا بسببها. — قد يكون، قلت، ولكن ليس كما تفكرين، إنني أولا لم أعرفها، وهي لم تعد على قيد الحياة ثانيا. — بدأ الأمر ينكشف لي، قالت ايفا أنت محام، هل يتعلق الأمر بجريمة؟ – ربما. — ولماذا لم تقل لي في الحال، لماذا أردت أن تراني؟ أنت تسمع بتهذيب قصصا عن فاليري ويشغلك شيء آخر تماما. — نعم، كلا، لا أعرف حقا، ايفا، معذرة، إنني مضطرب قليلا، وأجد نفسي بشكل ما مضحكا. — أول كلمة لطيفة تقولها، قالت ايفا، وإذن، بم يتعلق الأمر؟

أقول في المقدمة إن اهتمامي شخصي تماما، أنا لست كمحام هنا. أريد أن أسألك ببساطة عما إذا كان قد حدث في يونيو من العام الماضي هنا في المسبح الداخلي للمصح حادث، حادث انتهى بالموت. الضحية سيدة في حوالي الأربعين، يقال إنها انزلقت على حافة الحوض وماتت بعد ذلك بساعات في مستشفى في لوغانو متأثرة بجرحها. هل سمعت بهذا الحادث؟ كلا، قالت ايفا، كلا، لا أعرف شيئا عن حادث

كهذا. — هل يمكن أن يحدث دون أن تسمعي عنه؟ - يبدو لي هذا مستبعدا تقريبا. كان المرء سيتعامل مع المسألة بسرية تامة، ومع ذلك لكان شيء ما قد تسرب. هل يتعلق الأمر بشأن هذه المرأة المذكورة ...، ماذا كان اسمها؟ - بتينا لوس، قلتُ، ربما بتينا لوس، ربما أيضا غير هذا. — يا له من أمر غامض، قالت ايفا. — يبدو هكذا، قلتُ، ومع ذلك سيكون كل شيء قد انكشف إذا استطعتِ أن تعرفي أمرين: هل كان ثمة إمرأة بهذا الاسم هنا قبل عام؟ وثانيا هل تعرضت إمرأة، ربما يكون اسمها مختلفا، في ذلك الوقت لحادث في المسبح الداخلي أو بشكل آخر وماتت — في حالة نعم، ماذا كان اسمها؟ - لدهشتي قالت ايفا: ستعرف كليهما في خمس دقائق، المدير هنا، لقد رأيته للتو، كان سيعرف بالحادث، وقائمة النزلاء في يونيو الأخير يلفظها الكومبيوتر في ثوان، إلى اللقاء بعد قليل.

كانت معدتي لا تزال مستثارة، طلبت كأسا آخر من الفيرنيت. طفت بنظري فوق خليج انغو الذي ارتفع في الطرف الآخر من كولينا دورو محاطا بالبخار، أخضر رماديا فاتحا بعض الشيء. كانت مونتاغنولا بقعة غائمة فقط، وقد مسحت نظارتي بأصابع نافدة الصبر. حين عادت ايفا، لم يكن وجهها يشي بشيء، سألتْ من أين حصلت على المعلومات. — وإذن فهي صحيحة؟ سألتُ. — إنها غير صحيحة،

قالت، لم تكن ثمة إمرأة إسمها بتينا لوس في الدار في أي وقت من الأوقات، ولا ماتت إمرأة باسم آخر في يونيو الأخير بحادث هنا. — ولا قتلت أيضا أو قفزت من الشرفة؟ سألتُ. — ولا هذا أيضا، أيها السيد المفتش، قالت ضاحكة، لقد فحصت كل شيء، على العكس خطر لي الآن ثانية، انه في يونيو الأخير كان ثمة حادث في المسبح الداخلي، ولو كان صغيرا وهينا، كما تعرف. لا تدفعيني إلى الجنون، لا أعرف أي شيء. — تبدو كثير النسيان، قالت ايفا، ألم تصادف أبدا إمرأة ببنصر مكسورة؟ - هو ذاك، بالطبع، قلتُ، لكنه لم يحدث في المسبح الداخلي وإنما في الغابة، لم تر غصنا، ربما جذرا، وتعثرت به. — هذا ما روته للجميع، قالت ايفا، بدا لها أقل إحراجا من انزلاقها على حافة الحوض. — غريب جدا، قلتُ. ولأن الإصبع كانت قد تورمت، قالت ايفا، كان على الطبيب أن يقطع خاتم زواجها بكلابتين، هل روت لك هذا؟ - بالطبع لا، لم تكن تحمل خاتما أبدا حين كنا معا. — أستطيع أن أفهم، قالت ايفا، والآن حقّ عليك أن تقدم المقابل: من أين سمعت حكايتك، عمّ تبحث هنا، وما الذي يشغلك بقوة هكذا حتى أنك تبدو مستغرقا؟

تعرفت على رجل صدفة في بيليفو في مونتاغنولا، شخص غريب تجاوز الخمسين بقليل، متخصص في علوم اللغة، نشأت بيننا على نحو

ما صداقة، تحدثنا مع بعضنا طيلة أمسيتين، يدعى لوس، توماس لوس، دب من ناحية القامة، وكان قد سافر إلى هنا، كما عرفت شيئا فشيئا، ليحيي ذكرى زوجته بتينا الميتة، التي كان يُجلها مثل قديسة، وهو ما بدا لي جنونا. كانت به لوثة دون ريب، وكان يصير بين حين وآخر مجنونا تقريبا — ثم طبيعيا ثانية وله حدة ذكاء تلفت النظر، خاصة حين يتعلق الأمر بإثبات كم هو فظيع الزمن الحاضر، كم هو العالم لا يطاق. زوجته وحدها كانت ذات قيمة، زيجته السعيدة، بدا أنه كان يحملها على يديه، بعد موتها بإصرار أكبر مما في السابق كما يبدو. باختصار، روى لي أنها بعد عملية، تعلق الأمر بورم في الدماغ، سافرت للنقاهة إلى كادبماريو، برفقته، وبعد ذلك بأيام وقع الحادث. نقلت إلى اوسبيدالا سيفيكو في لوغانو، حيث ماتت في الحادي عشر من يونيو. — الباقي باختصار. أننا اتفقنا أن نرى بعضنا ثانية صباح اليوم في بيليفو حيث يقيم. لكنه لم يأت، وحين سألتُ عنه أوضحت لي السيدة في الاستقبال أنه لا يوجد نزيل في الفندق إسمه توماس لوس. وصفت لها موقع الغرفة. قالت فقط أن السيد قد غادر وأنه لا يجوز لها أن تذكر الأسماء. فكرت في البداية أنه سجل باسم مستعار، لكني تخليت عن هذا الافتراض لسبب مهم واستنتجت وفقا لذلك أن هذا المأفون قد خدعني وأنه لا يدعى توماس لوس. أقلقتني المسألة حتى

أنني، ربما لأجد الوضوح، جئت إلى هنا، هل تفهمين الآن؟ ما رأيك في هذا؟

لا أقول الآن أي شيء، قالت ايفا، لا أعرف إلا القليل، ارو لي المزيد. عمّ يتحدث رجلان طيلة أمسيتين على سبيل المثال. — حسنا، تناقشنا في البداية حول الله والعالم كما أشرتُ من قبل، لكننا أصبحنا تدريجيا أكثر شخصية، لنقل أكثر حميمية. سألني مثلا عن حياة العزوبية التي أعيشها وعرضا عن حياتي العاطفية. — هل حدثته عن فاليري أيضا؟ – كان هذا أمرا متوقعا بالطبع، قلت، إنه فرض نفسه، بعد أن اتضح أنها وزوجته كانتا معا في المصح لوقت قصير. — ما ثبت خلال ذلك أنه غير صحيح دون شك، قالت ايفا. هل كان اهتمامه بعلاقتك العاطفية كبيرا؟ – ليس كبيرا، قلت، لقد أصغى بمجاملة حقا، لكنه تثاءب أيضا خلال ذلك. — ولوس، ماذا روى لك هو عن بتينا، أعني من تفاصيل، من مظاهر على سبيل المثال، من أشياء متميزة ربما؟ – أشياء مختلفة، قلتُ، لماذا تسألين؟ – بدافع فضول أنثوي. — حسنا، قلت، ذكر شعرها الأشقر وقوامها الذي يشبه الساعة الرملية وأنها لا تأكل اللحم، لكنها تحب التوت الشوكي. لا يخطر لي المزيد في هذه اللحظة، بلى، إنتظري، لم تكن تدخن و لم تكن تهتم بالرقص، كانت

تحب أغنية معينة لشوبرت، تتغنى بجمال العالم، وكذلك، على العكس من لوس، مظلة هيسه ومقطعا له.

إنني أتجمد، قالت ايفا، سآتي بسترة سريعا، سأعود حالا.

عادت وظلت صامتة. نظرتْ إلي، ليس ببرود، كانت نظرتها الآن لينة، مشفقة تقريبا، آسفة، كما لو كانت تريد أن تقول: لا أستطيع مساعدتك للأسف. — بعد برهة سألتها لماذا لا تقول شيئا. — لأنها في الظاهر عاجزة عن الكلام، أوضحت. — قلت، سأفهم، الحالة حمقاء تماما. — إنها تجدها محزنة لحد الموت، قالت وسألت دون مقدمة، إن كنت أعرف ما يفعله فيليكس مهنيا. — قلت، روت لي فاليري أنه موسيقي وإنه يدرّس الجلو. — هكذا، قالت ايفا. — لماذا، أليس هذا صحيحا؟ سألتُ. — على أية حال هو يعزف على الجلو، أجابت. — إنك تتصرفين بغموض حقا، قلت. — توماس، يجب أن أنصرف الآن، أعتقد أنني لا أستطيع أن أساعدك، إنني طبيبة في أمراض التنفس فقط، لا أستطيع أن أشفي العميان. — ماذا يعني هذا الآن؟ سألتُ. ردت بسؤال عما إذا كنت أعرف من لوس صدفة ماذا يتناول مقطع هيسه، ذاك الذي وجدته زوجته بتينا جميلا بوجه خاص.

– نعم، قلت، هكذا تقريبا، عن حكمة كونية ما، في موضوع القلب والوداع. — أنظر، قالت ايفا وسحبت قصاصة صغيرة من ورق

الملاحظات من جيب سترتها، أعطيك هذه لترافقك في طريقك. مع السلامة، قالت ونهضت، صافحتني وتركتني جالسا. كانت ورقة مربعات مطوية، خبأتها وحدقت متبلدا في الطبيعة، ناديت أخيرا النادل، دفعت وانصرفت.

في الطريق، لم أعد أعرف أين، توقفت وأخرجت القصاصة. فتحتها وتعرفت على خط يد فاليري وتعرفت على السطرين:

يجب أن يكون القلب في كل نداء للحياة

مستعدا للوداع والبدء من جديد.

أهدأ يادمي! أمرت نفسي. لم يطعني الدم، تابعت السياقة مشتت الفكر. ليست الصدفة دليلا أبدا. كم من النساء تحب هيسه؟ مثل الكثير غيرها تتحدث هذه السطور، هذه بالذات، من القلب، رغم الجار والمجرور الفظيع في نهاية كل سطر؟ آلاف مؤلفة كما يبدو. وإذن: أحبتها بتينا، ومن الواضح أن فاليري أحبتها أيضا، رغم أنها أخفتها عني. إمرأتان تحبان نفس المقولة الصغيرة،

لا تتحولان لذلك إلى *واحدة*. وقد تظاهرت ايفا بالأهمية فقط، احتفظت بمعرفتها الظاهرية لنفسها لتجعلني أتخبط قليلا، وأعطتني هذه القصاصة فقط: القرينة الوحيدة التي أضلتها إلى شكها المضحك فيما

أظن. لا داعي للتخبط إذن، فكرت ثم دفعت عني مع ذلك ما أن وصلت إلى أغرا كأس النبيذ الذي كان قد مُلئ لتوه.

إتصلت سريعا بمحرر جريدة الحقوقيين لأبلغه أنني لا أجد نفسي بسبب المرض في وضع يمكنني من تسليم مقالي في الموعد المحدد له. ثم أوقدت نارا في المدفأة. جلست على الأريكة أمامها، ومن أجل أن أهدأ أغمضت عيني.

طيلة لحظات بدت طبيعتي اليقظة تتغلب ثانية. أستغربت من الأبله فيّ، الذي كاد يصاب بالجنون من تكهن جامح. قلت لنفسي، من ينقاد إلى ما هو غير متوقع، يفقد الطريق الذي يؤدي إلى المتوقع.

بعد الكأس الثالثة وقعت ثانية في التفكير وفي التذبذب. خطرت لي جمل، جمل لوس التي وجدتها فجأة مريبة، مزدوجة المعنى أو متربصة. فكرت بطريقة لاهية ما أمكن، في أي وقت – إذا صح أنه بيندل — استطاع أن يلاحظ من كان هذا الذي يجلس قبالته. في أبعد وقت، فكرتُ، حين ذكرت اسم فاليري، ربما قبل ذلك، حين ذكرت أن زوجته وصديقتي لا بد أنهما كانتا في نفس الوقت في المصح. لكن هذا لم يثِر اهتمامه حقا قدر ما أتذكر. خطرت لي مواضع تقاطع أخرى، إشارات أخرى يمكن أن تكون قد جعلتني معروفا — أخيرا تلك الواقعة أولا التي كبحت تقافزي بضربة: لقد قدمت نفسي من البداية

بإسمي، بإسمي الذي لا يصادفه المرء كل يوم، كلارين، التأكيد على المقطع الثاني. لنفترض أنه لا بد أن يكون قد سأل فاليري مرة، في حالة ما إذا كان قد عرف بعلاقتها الغرامية ما اسم هذا الشخص؛ لنفترض أنها أجابته– لكان لوس، كلا، بيندل، يعرف منذ البداية. ولهذا كان التنكر كله، إسمه المستعار واختلاقاته الأخرى.

أعتقدت لوقت قصير فقط في هذه الرواية، ثم اعتقدت أنني نسجت خيالات. هل كان بيندل سيصادقني؟ هل كان سيختلق ورما خصيصا من أجلي؟ هل كان سيدع فاليري تموت من أجل تضليلي فقط؟ كان كل هذا لا يستند إلى دليل. والبرق في هايدبارك بالدرجة الأولى! تجربة مؤثرة وصارخة كانت فاليري سترويها لي. وما كان بيندل ليرويها لي، لأنه سيكشف نفسه بها. لقد افترض بالتأكيد أنني عرفت بهذه الحادثة. ولكن كيف، إذا كانت هذه القصة مختلقة؟ أو أنها ببساطة أخذت من جريدة ما وحسب؟ ولكن لأي شيء؟ قد يكون لوس أحيانا مجنونا نوعا ما ولكنه لم يكن مريضا نفسيا.

طبخت معكرونة وأعددت لنفسي بيضتين، أكلت مشتت الذهن ودون رغبة. وبعد ذلك أمام المدفأة مضى إعمال الفكر ثانية، الاستسلام للوساوس، الرواح والمجيء المسبب للغثيان. أشعر بالدوار، وتراقص اللهب الذي كان يشعرني بالهدوء دائما يزيد من هذا الدوار.

حدقت في النار ورأيت فيها كيف حدق لوس في النار. ولأول مرة أدركت: لو كان بيندل قد جلس هنا، فإن كراهيته لي مؤكدة، ولكان لي الآن عدو لدود.

أمرت نفسي أن تتماسك. كان علي أن أفعل شيئا لأهدئ الضجيج في داخلي، لأستعيد الوضوح، لأعود إلى رشدي. لم أبحث في هذه اللحظة بالضرورة عن يقين، فقط عن النظام ووضوح الرؤية.

دخلت الغرفة الجانبية، جلست أمام الكومبيوتر المحمول. سمعت قرعا. وخفق قلبي في نفس الوقت، أحسست: أن لوس هنا.

— يأتي لوس ليقدم الأسباب لعدم حضوره اليوم، يأتي ليودعني.

فتحت باب البيت، لم يكن ثمة أحد، بدا لي أنني توهمت: تقلصت ألواح الخشب أحيانا وفرقعت خلال ذلك.

أغلقت باب البيت وجلست ثانية. ثم كتبت جملتين. *كل شيء يدور. وكل شيء يدور حوله.* — لم أحقق تقدما. لم أستطع أن أضرب ما أثارني على مفاتيح الكتابة. تجولت في الغرفة. صورة تاسو، موضوعة على رف الكتب ذكرتني بريشته للكتابة التي حصلت عليها من ماجدلينا كذكرى. بالطبع، فكرت وأخرجتها مع المحبرة من الدرج الأسفل للمنضدة. كانت رائحتها تشبه قليلا رائحة جدتي بين حين وآخر، أعتقد رائحة كافور. نظفت الأقسام الداخلية والخزان بالماء،

ثم سحبت الحبر الأزرق القديم. حين بدأت بالكتابة، اكتسبت بسرعة درجة حرارة يدي.

(1. كلمة كاتر بالألمانية تعني القط كما تعني في نفس الوقت الخُمار أو الصداع الذي يسببه الإكثار من شرب الخمر – المترجمة)

(2. يطلق مصطلح ساعة الأشباح على الوقت بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة عند منتصف الليل إستنادا إلى الاعتقاد الذي كان سائدا بخروج الأشباح في هذه الساعة)